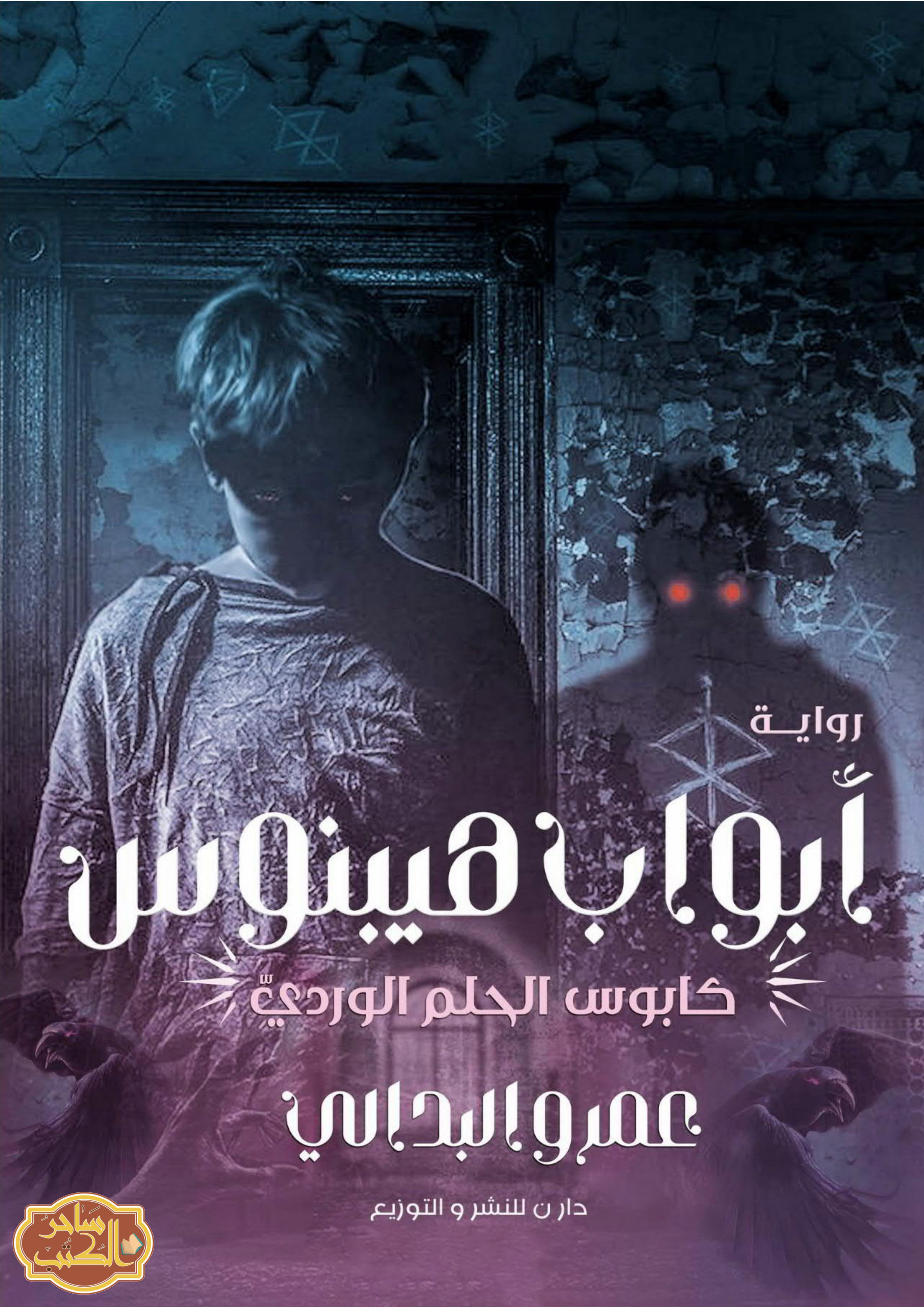


رواية
أبواب هيبنوس
كابوس الحلم الورديّ
عمرو البدالي
دار ن للنشر و التوزيع
ساحر الكتب

«لا تنم؛ فربما لا تنجو من سجون مدن الأحلام: ذلك هو الكابوس بعينه».

د.هيبنوس

-١-

مـــــدُن الغربـــــان

دقات مرعبة متتالية بإيقاعٍ رتيب.. تتخللها أصوات بكاءٍ مكتوم وأنَّاتٌ لا يقوى أصحابها على الصراخ.. ظلامٌ دامسٌ يتخلله وميضٌ خافتٌ يُظهِر بالكاد ذلك المكان الموحش.. كهف كالمتاهة جدرانه من جماجم بشرية متراكمة ملتصقة ببعضها البعض وأرضه مخضَّبة بدماء دافئة.. طفل في العاشرة من عمره يَظهر وجهه مع تلاعب الوميض ويختفي.. صوت دقات قلبه المتسارعة ينبىء بفزعه الشديد.. عيناه البريئتان ترتعشان.. ودَّتا لو تقفزان بعيدًا عن ذلك الجسد الضئيل وتنجوان بنفسيهما كي لا تصبحا جزءًا من كابوسٍ ذلك الطفل.. صوت أنفاسه يتعالى.. صوت أجش يهمس له:

- ما ينتظرك في الظلام بشعٌ للغاية.

يبكي الطفل.. يتلفت حوله.. رجل في أواخر الستينات من العمر ممسكٌ بمصباح زيتيّ في مكان ما داخل الكهف.. يسمعه الطفل ولكن لا يراه.

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

قطرات من الدماء تتساقط في أحد الجوانب.. يرتعب

الطفل أكثر وأكثر.

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

فجأة فتحتُ عينيّ.. للحظات أدرك عقلي أن ذلك الكابوس المعتاد لم يعد ينتهي باستيقاظي.. اللعنة! لقد أصابتني لعنة الأحلام فلم أعد أدري هل أنا على قيد اليقظة، أم ما زلت أغط في كابوسٍ عميقٍ كجُبٍّ سحيق أُلقيت فيه منذ أن كنت طفلًا ولم أُنقذ منه بعد؟

التفتُّ حولي.. جدران متآكلة زيتية.. تشققات بعرض الحائط أمامي.. صورة معلقة في منتصفه يغطيها التراب.. رجل يحتضن طفله.. صورة لي مع أبي.. تنهدتُ.. كنت مستلقيًا فوق فراش غارقٍ في الدماء.. دمائي! هذا ما خطر في بالي.

مصباح علوي ترتعش إضاءته وصوت سقوط قطرات الدماء مستمر.. الصدأ حولي في كل مكان كأنه السمة الأساسية لهذه الغرفة.. أدوات جراحية متناثرة.. جسدي موصَّلٌ بأسلاك أجهزة قياس النبض والقلب.. خبر سعيد.. ما زال قلبي يدق.. صوت الجهاز ينبىء بذلك.. ما زلتُ على قيد الحياة على كل حال.. آلام شديدة تنتابني بغتة.. جلست.. بذتي العسكرية معلقة في جواري لم يمسسها شيء.. تضوي النجمة الجديدة الذهبية المضافة للنسر فوق الأكتاف كأنها

تذكرني بترقيتي الأخيرة.. مقدم شرطة عيسى مختار الجيار.. ما زلت أرى ذلك الطفل داخل الكهف المظلم يرتعش خوفًا.. أشعر به.. إنه أنا في صغري.. وذلك الرجل المنادي له هو أبي.. أسمعه بوضوح:

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

تبًا لذلك.. أمسكت رأسي من شدة الألم:

- اللعنة!

نزعتُ تلك الأسلاك عن جسدي ونهضت بالكاد.. لم تعد قدماي قادرتين على المقاومة أكثر من ذلك.. استندت على الحائط ودمائي ما زالت تتساقط من جسدي.. مرآة متآكلة أمامي وجدتني فيها عاري الصدر.. اقتربت.. برقت عيناي.. هناك جرح طولي يشق صدري بالكامل وأسلاك طبية يُغلق بها الجرح.. تألمت بشدة.. تعثرت في شيء ما.. نظرت لأسفل.. لم تكن تلك دمائي أنا.. جثث متراكمة على أرضية الغرفة يبدو أنها لأطباء وممرضين.. ملابسهم الغارقة بالدماء تنبىء بذلك.. فزعت.. صرخ الطفل في داخلي.. صرخت.. مددت يديّ وأمسكتُ بذتي وارتديتها رغمًا عن تلك الدماء.. ركضت إلى خارج الغرفة.. هرولت جاهدًا للخروج من هذه المستشفى.. طوال الطريق خضبت الأرض بالدماء.. ممرات المستشفى ممتلئة بالجثث.. باب كبير زجاجي مرسوم عليه

زهرة أرجوانية اللون.. أعرفها جيدًا.. زهرة الخشخاش.. هذه اللوحة التي حققت بنفسي في سرقتها من المتحف منذ سنوات بعيدة.. فتحت الباب بكل قوتي.. تسرب ضوء الشمس إلى الداخل.. صوت أبي يهمس داخل الظلام:

- هيبنوس!

نظرت في قرص الشمس مباشرة من دون ساتر بعيون مفتوحة.. تعجبت.. صوت أبي يطاردني:

- تعال إلى النور يا ولدي!

- الظلام داخلي يا أبي.

- تعال!

- لا أراك.

خرجت.. ساحة شاسعة أمام المستشفى وسط الصحراء.. جبال رملية على مدى البصر وأناس مبتسمون ثابتون كالأصنام.. اخترقتُ زحامهم.. ابتسمت لهم.. صوت أبي:

- تعال إلى النور يا ولدي!

الطفل في داخلي يشتد عليه الظلام.. يتلاعب الوميض به.. يدرك للحظات أن الكهف الموجود فيه ممتلئ بألعابه الصغيرة ودمى لا حصر لها.. لكنها ملطخةٌ بالدماء.. يصرخ

الطفل هلعًا.. تحركت الدمى مبرقة العينين ناحيته.. انزوى ناحية أحد الجدران.. هاله رؤية الجماجم وإدراك وجودها.. بغتة تحت الشمس صرخ الناس جميعًا.. انطلقت صافرة إنذار كتلك التي دوَّت في الحروب العالمية الماضية.. تحولت ابتساماتهم إلى صرخات مدوية علت صوت صافرة الإنذار.. الطفل يصرخ.. الدمى تقترب منه.. صرخت:

- ما زلت في الكابوس.. استيقظ! افتح عينيك!

صوت أبي من داخل الظلام يهمس لي:

- لا يمكن إيقاف الشيطان يا بني.. لكن يمكنك فقط أن تحمي نفسك منه.

صرخت:

- ما زلت في الكابوس.

- الكابوس هو شيطان يكذب على النائمين.

طائرات حربية تملأ السماء وتنشر الرعب على الوجوه.. طائرات على مقدمتها رُسمت زهور الخشخاش.. تُسقط قذائفها في فوضى عارمة فيتحول الناس إلى أشلاء من حولي.. صرخت:

- الكابوس والحقيقة لا يفترقان.

إنني محاصر.. للحظة تمنيت الموت كهؤلاء ولكن ذلك محال.. فما زلت شاهدًا على العذاب.. قدري أن أبقى للنهاية.

امتزجت صرخاتي بصرخات الطفل في داخلي.. صوت أبي يعلو:

- هيبنوس!

استمعتُ فجأة إلى موسيقى هادئة ينتشر معها ضباب كثيف.. تبتعد أصوات القذائف وتختفي الطائرات.. ترتعش أوتار الكمان في يد عازف مجهول يظهر وسط الضباب.. ثم تظهر هي.. فتاة في الثلاثين من عمرها جمالها أخَّاذ.. سمرتها تسلب العيون مهما قاومت.. شعرها المجدلي كالتاج فوق عينيها البنيتين الساحرتين.. تلك كانت المرة الأولى التي أراها فيها.. لُمتُ نفسي في البداية.. كيف لي أن أُعجب بغير من مال إليها قلبي طيلة عمري؟ سؤال سخيف وسط تلك الدماء! أليس كذلك؟

- اخرس أيها الأبله!

هكذا همست لنفسي.. تقدمت ناحيتها.

- من أنتِ أيتها الفاتنة لتظهري في خراب كهذا؟

فوق الأشلاء تقدمتُ ناحيتها.. العازف يعزف لحنًا يُدخل

قلبي في سكرات عشق مباغت مترنحًا من لذة الوجد ثملًا من عبير روحها المباغت.. أمسكت بيديها الناعمتين ونظرتُ في عينيها الساحرتين هامسًا:

- أتراقصينني؟

- ومن غيرك يُسمح له بذلك؟

التفتْ يدي على خصرها البضّ وعيناي لا تفارقان عينيها.. كأنني أعرفها منذ بدء الخليقة وقلبي يشتاق إليها منذ أن وُلدت.. تراقصنا كأننا والضباب أصدقاء عمر تحت شمس لا تغيب.. هكذا تمنيت.

هل وقعت في حب فتاة لا تعرفها من قبل؟ وجدت نفسي غارقًا في بحور عينيها من دون سابق إنذار.. الطفل في داخلي يصمت.. يهدأ.. الدمى تكف عن الحركة.

قبّلتها.. تلاقت شفاهنا.. شعرت بهما كجنة أُلقيتُ على شواطئها من دون ميعاد.. احتضنتها.

كأنها طوق نجاة من حروبٍ يشتد وطيسها داخل عقلي.. همست روحي في رحاب جمالها.. ضميني إليكِ كطفل يتوق إلى أحضان أمه بعد طول فقدان.. دثريني بدفء روحك بين دفتي عينيك.. قوديني إلى ضفاف مدينتك المُحرمة.. وغلّقي أبوابك علينا أبد الدهر لتكوني جنتي بعد طول عذاب.

تراقصنا كعاشقين يباغتهما الفراق.. قلوبنا تفر إلى عناق ينذر بالرحيل.. يزداد إيقاع اللحن حتى باتت تلك الأوتار تشنقنا.. ارتعشت أرواحنا.. لو أنها تهرب بعيدًا إلى عالم دون رقيب!

الضباب يتلاشى رويدًا رويدًا.. الطائرات مستمرة في القصف بضراوة.. التفتُّ ناحيتها في قلق شديد.. ثم نظرتُ إلى تلك السمراء:

- ما اسمك أيتها الفاتنة السمراء؟

همست:

- لا تنم.. فربما لا تنجو من سجون مدن الأحلام.. ذلك هو الكابوس بعينه!

ارتعشتُ.. لقد تبدلت.. تقف مكانها حبيبتي وزوجتي (همس) تقذفني بنظرات مارقة كالسهام تخترق قلبي لتخبره بخيانته.. تلعثمت على لساني الكلمات وانتحرت.. ليس لدي أي تفسير لخيانتها وإن كان في كابوس كهذا.. عاودت الدمى الحركة من جديد ناحية الطفل في داخلي.. الظلام يشتد من حوله.. اقتربت مني همس وبصوت مرتعشة كلماته حدثتني:

- في مدن الغربان تنمو الجرذان وتنتشر ويتكاثر العفن

ويتفاحش حتى يحتل نفوس البشر.

لم أفهم ما ترمي إليه.. في لحظة واحدة وقبل أن أسألها امتلأ العالم حولنا بغربان مرعبة.. رأيناهم واقفين ينظرون تجاهنا في كل مكان على مدى البصر.. وكأنهم ينتظرون إشارة البدء لافتراسنا وجبة دسمة.. انساب من بينهم عدد مهول من الجرذان.. تُصدر صريرًا مفزعًا يصم آذاننا.. صرختُ عاليًا والجرذان تتسلق قدميّ.

- الغوث!

في هذه اللحظة طارت الغربان في اتجاهنا تنعق كهجوم حربي بامتياز.. أحدهم التقم عينيها بمنقاره المفترس وصرخاتها تتعالى، بينما تلتهم تلك الجرذان جسدي في نجاح باهر.. الطفل في داخلي يسقط أرضًا وقد اجتمعت عليه الدمى تلتهم جسده.. قبل أن أغيب عن الحياة ابتسمت.. تذكرت تلك اللحظة في أحضان السمراء.. كانت كفيلة بتحمل ذلك العذاب وإن كانت داخل كابوس.. لُمتُ نفسي مجددًا.. أنت تستحق ذلك جزاءًا للخيانة.

لوحة زيتية رُسمت ببراعة في منتصفها كنتُ واقفًا، وهمس مُعلقة في قدميّ من دون عينين وتجويفهما ينزف منهما الدم، وحولنا الجرذان تملأ اللوحة والغربان تنقض علينا.. لوحة بعنوان «مدن الغربان».

همست وسط الخراب قبل أن يسود الظلام : حذارِ من مدن الغربان!

-٢-

نعــــاس جبــــريّ

- استيقظ يا بني.. استيقظ!

فتحت عينيّ.. صوت عقارب الساعة في حركتها الرتيبة يخترق الصمت الموحش حولي.. نجوتُ من هذه الغفوة أيضًا.. نظرتُ حولي وتحركت مقلتا عينيّ بحذر شديد.. كنتُ في غرفتي الخاصة بمنزل العائلة.. جهَّزتها وانتقلتُ إليها بعد أحداث حياتي الأخيرة.. لوحات الرسم متناثرة هنا وهناك بين عدد كبير من أكواب القهوة الفارغة.. ستائر الغرفة مغلقة بإحكام منذ فترة ليست بالقليلة.. قد تراكمت عليها الأتربة والبقع بل إن الغرفة تبدو كأنها مهجورة منذ عقود.. فوضى تماثل ما أشعر به للتو.

جلست.. تنهدت.. كانت في جواري تنظر لي بعتاب شديد.. رأيتُ ذلك في عينيها من دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة.. فهمتُ مبتغاها.. إنها همس.. زوجتي.. يبدو أن ما عايشته في كابوسي الأخير تراءى لها بصورة ما كعادتها.. نهضتُ.. تجاهلتُ نظراتها.. آلام شديدة تنتابني.. قاومتها.. انتعلتُ حذائي القديم.. ترجلتُ ناحية الطاولة الخشبية البيضاء ذات البقع البنية.. عطن متراكم اعتدت عليه يتسرب إلى

أنفاسي ويمتزج بها ليغزو رئتيّ، وللحق ما عدتُ أشعر ببعض الراحة إلا هنا.. في هذه الفوضى.. مددتُ يديّ وارتشفت رشفة من فنجان القهوة البارد.. نظرتُ لنفسي في المرآة الجانبية القريبة.. ابتسمت ساخرًا.. أهذا هو المقدم عيسى مختار الجيار حقًا؟ لقد تبدلت.. انتشر الشيب في رأسي على استحياء، ونُحتت بعض التجاعيد الخفيفة حول عينيّ، وتكاثف السواد تحتهما.. ما زالت عيني اليسرى ترتعش.. حركة عصبية لا تنقطع.. العرق يتصبب فوق جبيني.. نظرتُ للساعة المعلقة على الحائط.. السابعة صباحًا.. ضغطتُ على زر الحاسوب الإلكتروني الخاص بي فجاء صوت (عبد الحليم حافظ)، مطربي المفضل، يطربني بأغنية قارئة الفنجان كمن يحاول انتشالي من متاهة الأموات ليُعيدني إلى حياة طبيعية من دون جدوى.. دندنتُ معه:

بصَّرتُ ونجّمتُ كثيرًا لكني لم اقرأ أبدًا فنجانًا يشبه فنجانك..

بصَّرتُ ونجمتُ كثيرًا لكني لم أعرف أبدًا أحزانًا تشبه أحزانك..

مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر الحب بغير قلوع..

وتكون حياتك طول العمر كتاب دموع.

تناولتُ منشفة من فوق أحد الكراسي الجلدية.. ترجلتُ ناحية المرحاض الملحق بغرفتي.. تعثرت قدماي في لوحتي الأخيرة (مدن الغربان).. انحنيتُ ممسكًا بها.. ألقيت نظرة عليها هامسًا:

- في مدن الغربان تنمو الجرذان وتنتشر ويتكاثر العفن ويتفاحش حتى يحتل نفوس البشر.

تركتها على الطاولة وأكملت طريقي نحو حمام ساخن متجاهلًا نظرات همس الحزينة.

عشقتُ الرسم منذ أن كنت طالبًا في المرحلة الاعدادية، ولولا إصرار والدي اللواء مختار الجيار على الالتحاق بكلية الشرطة لأكون خلفًا له، لكنتُ الآن أحد الفنانين التشكيليين المعروفين.. حلمتُ كثيرًا بحياة فنية يملؤها الترف، ولكن واقعي كان أشد حدة وجدية من أحلامي.. مقدم شرطة ظاهره القوة والجسارة وباطنه يتردد فيه ألف صوت ليّن يخبره أنه قد سلك الطريق الخطأ، ولكن بعد فوات الأوان.. لأخرج ممزقًا من تلك الصراعات مستسلمًا لواقعٍ لم أختره يومًا.

انسابت المياه الساخنة على جسدي المنهك.. لعل الماء يغسل عقلي.. يمحو ذاكرتي.. لو أن هناك طريقة يستطيع بها الانسان أن يفقد ما يختار من ذاكرته كل صباح ويُبقي على

ما يحب فقط! لكانت الجنة على الأرض.. الجنة! ترى ما هي جنتي؟ حبيبتي همس! أم والدي الذي تعلقت به روحي منذ نعومة أظافري، واتخذته قدوة لي، وأعليث كلامه وأوامره فوق أي اعتبار؟ أم ابنتي (ورد) ذات العشر سنوات؟ ملاكي الصغير.. من رأيت الجنة حقًا في عينيها البريئتين. أم في حطام غرفتي تلك التي اتخذتها مقبرة حياتية اختيارية! لا أعرف حقًا.. ربما الجنة تكمن في النسيان؛ ولذلك عقلي يشتعل بجحيم لا يُقارن يصرخ له قلبي كل لحظة.

ارتديتُ بذتي العسكرية لألحق بموعد تحقيق كُلفتُ به ليلة أمس.. مريض غرفة ٦٦ في مستشفى العباسية للطب النفسي.. استجواب لمجذوب! هكذا استنكرت التكليف.. ولكن العميد شكري وضح لي السبب فزاد اندهاشي.. ربما اليوم يولد الخلاص من أزمتنا جميعًا.

التفتُّ ناحية (همس) التي ما زالت في مكانها تحدق فيّ.. ابتسمت لها مستنكرًا:

- لا يمكنك عتابي يا همس.. لا يمكنك.. فالموتى لا يجيدون العتاب أبدًا.

لو أن هناك مجالًا للعتاب، فأنا من أعاتبك على الرحيل.

لم تجب كعادتها.. أعلم أنها وهمٌ يجسده لي قلبي المطعون

منذ موتها.. ربما لأنني كنت مسئولًا عن ذلك الرحيل المباغت.. ربما لكفري بجنتها طوال سنوات عشقها المُقابل ببرود من طرفي.. كانت لهمس شخصية عملية.. تكره ذلك الفنان في داخلي وتدعم بقوة رغبات والدي وخططه لحياتي.. عشقت همس الضابط وبذته ووجاهته ونفوذه، وتناست عن قصد طبعه اللين وحبه الخفي للفن ورغبته في ممارسته، وإن كان بعيدًا عن الناس سرًا.. لطالما قاومت همس نزواتي الفنية بل وسخرت من كل محاولة أقدمت عليها.

كانت هذه الغرفة المكتظة بلوحاتي التي أنشأتها مؤخرًا بعد الوقوع في بئر الآلام إعلانًا لتمرد جاء متأخرًا.. حقًا آلمني رحيلها، واكتشفت بعد فوات الأوان أنني أحببتها كثيرًا ولكنني منعتُ قلبي من الاعتراف بذلك عنادًا.

ذات ليلة اختفت (همس) ولم تعد إلى البيت.. بحثتُ عنها في كل مكان من دون جدوى.. تناوب القلق علينا جميعًا وسقطنا في بحور هائجة من الاحتمالات المرعبة حتى جاءني هاتف من العميد شكري.. كان صوته مختنقًا:

- لقد اختطف البرنس زوجتك يا عيسى.

استشاط غضبي.. ذلك المجرم الهارب المحكوم عليه بالإعدام يتحداني.. ينتقم مني لأنني الضابط الوحيد الذي

نجح في اختراق حصنه اللعين والقبض عليه حيًا.. إرهابي كريه.. حاول الهرب عدة مرات بعدها حتى نجح.. والآن يخطف زوجتي همس ليساوم على حرية رجاله.

أعماني غضبي وألجمني عنادي ولم أشعر بنفسي إلا وأنا واقف على جثتيّ همس والبرنس بعد تحديد مكانها واقتحام وَكْره بقوة غاشمة أودت بحياتهما معًا.. لقد فقدتها.. ربما قتلتها برصاصاتي انتقامًا لرغباتها السابقة في تغييري.. هكذا اتهمت نفسي.. تعذبتُ.. أدركت أنني أحببتها بكل جوارحي.. لكن ما الفائدة!

- استيقظ يا بني.. استيقظ!

ابتسمت.. ما زال صوته يطاردني.. أغلقت حاسوبي وعبد الحليم يقول:

- طريقك مسدود مسدود يا ولدي.

خرجت من عزلتي وترجلتُ نحو الغرفة المجاورة.. فتحتُ بابها.. ولجتُ داخلها.. ضوء الشمس يتسلل عبر النافذة.. كرسي جلدي تجلس عليه أمي وعيناها حمراوان كالدم.. نظرت لي صامتة.. ابتسمتُ لها مقتربًا من الفراش أمامها:

- صباح الخير يا أمي!

- صباح الخير يا عيسى!

نظرتُ لابنتي العزيزة.. جنتي المفقودة.. ورد.. ملاكي النائم.. ما زال صدرها يضج بالحياة ويرتفع وينخفض بأنفاسها الهادئة.. التفتُ لأمي متساءلا بعينيّ فأجابتني بالنفي من دون أن تنطق.. أمسكت قلماً في جوار فراشها وكتبت على ورقة في سجلها المرضي.. اليوم التاسع والثلاثون بعد الثلثمائة.. تركتُ السجل.. قبلتُ جبينها.. ثم قبلتُ جبين أمي وخرجتُ.

جحيم مستعر أُلقيتُ فيه بعد موت زوجتي؛ ففي نفس الأسبوع انتحر والدي مُلقيًا نفسه من الطابق العاشر.. الطابق الذي يحوي شقتنا.. بعد أسبوع مليء بالخناق والصراعات مع أمي من دون مبرر.. اعتقدنا أنه حزين على همس وعذرناه لذلك لحبه الشديد لها، ولكن تدهورت الأمور سريعًا حتى صحونا على كابوس لم نفق منه حتى اللحظة.. انتحر أبي بهذه الطريقة البشعة.. تلك كانت بداية لمصير نعايشه ولا أفهمه حتى اللحظة.. في نفس التوقيت تقريبًا انتحر صديقه الطبيب مصطفى الأسيوطي.. صديقه الوحيد.. ربما في نفس الساعة وكأن الاثنين اتفقا على مغادرة الدنيا معًا.

خرجتُ إلى الشارع وانتظرتُ حافلةً حكوميةً تقلني.. لم أعد قادرًا على قيادة سيارتي منذ أن دخلت ابنتي في

مرضها الأخير.. بل تخطى الأمر مجرد معاناة شخصية لكارثة أصابت البشرية كلها في عامها الأخير.. عام النوم.. مرض النعاس الجبريّ.. مرض جديد ينتشر بسرعة البرق بين شعوب العالم أجمع.. يدخل المرء لينام ولا يستيقظ لأيام وشهور.. كأنهم في غيبوبة قهرية.. ولكن أجهزتهم الجسديّة تعمل في كفاءة عالية.. تحيّر الأطباء في تفسير هذا المرض.. وصنفوه جائحة عالمية وعجزوا عن فهمه وتفسيره.. فأمامهم الناس نيام من دون استيقاظ، والأعداد تزداد يومًا بعد يوم.. حتى صارت أعدادهم تقترب من ثلثي البشر.. وهذا ما أصاب ابنتي بعد انتحار أبي بشهرين.. ساد الرعب الأرجاء والشعوب.. حاول الكثيرون ألا يناموا لأيام هربًا من شبح المرض اللعين.. ولكنهم لم يتحملوا فسقطوا الواحد تلو الآخر في نوم جبريّ.. منهم من قام منه.. ومنهم من لم يعد.. تفاقمت الأزمة حينما مات بعض النائمين بعد عام من تلك الظاهرة من دون استيقاظ ولو لمرة واحدة.. فباتت حياتنا جحيمًا لا يُطاق.. إضافة لأزماتي قبل الجائحة.. أب منتحر، وزوجة مقتولة، وابنة نائمة لا تستيقظ، وعالم يتساقط من حولي.. فركتُ عينيّ الحمراوين.. لا أتذكر المرة الأخيرة التي نمت فيها كالنوم الذي عرفه البشر في الماضي.. ربما قبل موت زوجتي.. ما بعد ذلك كانت سقطاتٍ في كوابيسٍ لا تنقطع.. في غفوات متتالية.. أخاف النوم كخوفي

من وحش ينتظر غياب عقلي في سبات جبريّ لينهش قلبي ويمنعني من اليقظة مرة أخرى.. أظل كذلك.. أقاوم وأقاوم حتى أسقط غصبًا في سبات مضطرب، وتُكتب لي النجاة فأستيقظ على زيادة الأعداد من حولي.. أهرع لأطمئن على أمي.. من اعتمدت عليها في متابعة حالة ورد حالما أتتبع لغز تلك الجائحة المرضيّة ضمن فريق موسع من الضباط والأطباء والعلماء الذين تنقص أعدادهم كل يوم فيسقط بعضنا في نوم بلا يقظة.

هُلعت القلوب وترددت الأساطير ونشطت أعمال الدجالين الذين ما زالوا قيد اليقظة.. زادت حالات الانتحار خوفًا من تلك النهاية العجيبة للبشرية.. وذهب البعض لتفسير ما يحدث بأنه مؤامرة كبرى عن طريق إطلاق غاز جديد يسبب تلك الحالة في الهواء، ولكن بعد انتشار النعاس الجبريّ في العالم أجمع تخلوا عن هذا الاحتمال.. ووقفوا يواجهون مصيرهم كمجاذيب مُعلقة عقولهم بسراب يبتعد.

وصلت الحافلة.. صعدتُ وجلستُ في كرسي فارغ بجوار أحد المستيقظين.. نظرت حولي.. الركاب أغلبهم نيام لا يتحركون والباقون جاحظو الأعين خائفين.. أصدرت الحكومات قانونًا بعدم التعرض للنائمين أو نقلهم من أماكنهم.. ووفرت لهم على الفور الخدمات الطبية المتصلة

ببقائهم أحياء.. زودت جميع الحافلات برفوف ممتلئة بزجاجات الجلوكوز وبعض الأدوية التي تحافظ على حياة النائمين.. وبعد أن زادت نسبة الحوادث لنوم السائقين بغتة، صدرت التحذيرات بأن يترك المواطنون سياراتهم ويرتادوا الحافلات الحكومية والخاصة المجهزة، ليكون هناك فرصة لمساعدي السائق أن يحلوا محله لو أصابه مرض النعاس الجبريّ وهو على عجلة القيادة.

كنتُ في طريقي لتحقيق جديد قد يجد لنا مخرجًا من تلك الأزمة.. أبلغني العميد شكري قبل الفجر بساعة أن هناك رجلًا في مستشفى العباسية للطب النفسي استيقظ من حالة النعاس الجبريّ.. الوحيد في العالم حتى الآن.. المستيقظ الأول بعد نوم جبريّ لأكثر من أحد عشر شهرًا.. بل إنه كان من أولى الحالات التي سُجلت في هذا المرض العجيب.. الأمر سري للغاية.. طلب مني التحقيق معه والوصول لأي حل قبل أن تتهافت عليه منظمات التحقيق العالمية من كل البلدان.. هكذا استقبلت التكليف من نائب وزير الداخلية مباشرة فأغلب رؤسائي قيد النوم الإجباريّ في تلك الغيبوبة.

مريض غرفة ٦٦.. دكتور مسرور الضبع.. أستاذ التاريخ المقارن بكلية الآداب جامعة عين شمس.. فُصل من عمله منذ عام ونصف بعد فضيحة أخلاقية مع إحدى طالباته واعتزل

الحياة العامة وهجر بيته وعائلته واختفى.. ثم ظهر في مستشفى العباسية مريضًا بالذُّهان، وبعد شهر من العلاج اختفى من المستشفى هاربًا، ثم عاد مضطربًا بعد فترة قبل أن يدخل في نومه الجبريّ.

أثناء بحثي الدقيق في ملفات حاسوب المستشفى ليلة أمس عبر شبكة الانترنت بعد السماح لي بالولوج إليها.. عثرتُ على تقريرٍ أمني عن دكتور مسرور قبل الجائحة بقليل يفيد بإبلاغ الممرضين المسئولين عن متابعة حالته اليومية بعد عودته إلى المستشفى.. أنهم عثروا على جملة مكتوبة بالدماء على جدران غرفته.. تكرر ذلك يوميًا لمدة شهر كامل من دون أن يعرفوا كاتبها.. حتى أنهم أحكموا وثاقه مكبلًا في عمدان فراشه الحديدية الصلبة طيلة الوقت، وتأكدوا أنه لا يمكنه كتابة ذلك أبدًا من وجهة نظرهم.. حتى أنهم وضعوا له كاميرات مراقبة وتابعوه لحظة بلحظة من دون جدوى.

كانت هناك تسجيلات مرفقة بهذا التقرير الأمني.. فتحتها.. وجدتها مرعبة.. رأيته نائمًا فوق سريره مبرق العينين كأنه جثة تتنفس ببطء.. سكون لا يتخلله غير صوت دقات قلبه الرتيبة.. عند غروب الشمس تنتابه رعشات قوية يهتز لها فراشه وتجحظ عيناه بشدة محاولًا فك قيوده.. يصرخ بصوت يهز القلوب.. كأنه صوت قادم من الجحيم.. ثم

تُكتب بعدها تلك الجملة المخيفة التي ظنوها كالسحر بدماء حقيقية مجهولة على الحائط:

«سينتصر الشيطان وعلامة ذلك أن يُحبس الناس في مدن الأحلام وهم على قيد الحياة».

وأسفلها توقيع (هيبنوس).

حاولوا تغيير غرفته فتكرر الأمر:

«سينتصر الشيطان وعلامة ذلك أن يُحبس الناس في مدن الأحلام وهم على قيد الحياة».

هيبنوس

شهر كامل على نفس الحال حتى انتهى الأمر بغتة.. اختفت تلك الجملة من غرفته وسكنت رعشاته.. ودخل في حالة من النوم لا يستيقظ منها.. بعدها انتشر المرض وتفشّى بين الناس.

بحثث عن معنى كلمة هيبنوس.. لفظ أطلقه الإغريق على إله النوم المسئول عن إدخال الناس في حالة النوم منذ أن خُلق الإنسان.

- أعلنت منظمة الصحة العالمية أن عدد المصابين بمرض النعاس الجبريّ قد تخطى حاجز الخمسة مليارات في العالم

أجمع، والجدير بالذكر أن الفشل...

جاء صوت المذيع عبر راديو الحافلة كصوت بعيد يتردد أسمع بعضه ولا أستمع إلى أغلبه.. كأنه يحاول يائسًا انتشالي من غفوة جديدة تُهاجمني.. قاومتها بكل قوة ومع ذلك لم أستطع منع عينيّ من القفز في بئر من سبات فجائي.. قاومتُ.. صرخ عقلي بأوامره وكأنه يجذب عينيّ المكبلتين بأكبر الجبال في العالم نحو يقظة جبريّة حتى فتحت عينيّ فجأة.. موجة عالية من بركان ثائر يملؤه الحميم يقترب نحو الحافلة.. هلعتُ صائحًا قبل أن ترتطم تلك الموجة بالحافلة وتحيلنا لرماد فانٍ:

- البركان! البركان!

نظر ناحيتي مساعد السائق من دون أن يتحرك من مكانه.. ضحك الرجل الجالس في جواري:

- هلاوس وضلالات بصرية.

نظرتُ إليه ولاحظت أن عينيه لا تريان.. رجل أعمى.. التفتُّ ناحية الشارع.. حينها اختفى ذلك البركان فجأة كما ظهر وعادت الشوارع على طبيعتها في عينيّ.

ربت الرجل على يدي:

- أتعتقد أنها مؤامرة؟

لم أجبه، فاستكمل حديثه من طرف واحد:

- ربما هو عقاب من الله.. أتتذكر ذلك الفيروس المسمى كوفيد ١٩ الذي اجتاح العالم منذ فترة؟

إن أراد الله أن ينهيها فلا يُسأل عن السبب.. ولا يُبحث عن مؤامرة.

- محطة العباسية.

قالها مساعد السائق..

نهضتُ.. إنها محطتي المنتظرة لأهبط أمام مستشفى العباسية للطب النفسي.

ابتعد صوت المذيع والحافلة تبتعد:

- مئات الآلاف من عمليات السطو المسلح والسرقة حول العالم.. والحكومات تقف عاجزة.

انتشرت قوات الجيش في شوارع المدن -ليس فقط في مصر ولكن في العالم أجمع- للحماية من الفوضى العارمة التي سببها المستيقظون.. مررتُ أمام كمين للجيش وأبرزتُ بطاقة هويتي الشخصية ودخلت المستشفى.

أعلم أن اليأس خيانة وخاصة في قضية بشرية مصيرية كهذه.. أقسم أنني سأحاول مرارًا وتكرارًا.. إن لم يكن للناس فلابنتي ورد.. ربما صحوتها من جديد تُنسيني خطيئتي ومسئوليتي عن رحيل والدتها.

- سينتصر الشيطان! هيبنوس!

همست متنهدًا وأنا أترجل عبر ممرات المستشفى في طريقي نحو غرفة دكتور مسرور مريض الغرفة رقم ٦٦.. تعثرتُ في نائمين طوال الطريق سواء على مقاعد جانبية أو على الأرض.. لم يتبقَ سوى بعض الممرضين والأطباء المنهكين الموشكين على السقوط والاستسلام للنوم.. أخرجتُ من جيبي حبة من ذلك الدواء الذي يساعدني على اليقظة لأيام، المصنوع من حبوب القهوة المركزة وبعض المنشطات للمخ وتناولتها.. فُتح لي باب غرفته المغلقة بجنزير حديدي.. دخلت.

وجدته واقفًا ينظر من شرفة الغرفة الحديدية شاردًا.. شعر بوجودي.. تركنا الممرض وأغلق الباب علينا.. التف ونظر في عينيّ.. كانت عيناه زائغتين خائفتين مضطربتين.. اقتربت منه.. همستُ:

- لن أخرج من هنا إلا بحل لهذا الوباء.

ابتسم.. شعرت بأنه طفل صغير فرح بزيارة بعد طول عزلة.. اقترب مني.. نظر في عينيّ بجنون هامسًا قبل أن ينخرط في نوبة ضحك هيستيري:

- هل يغسل الماء الذنوب يا هذا؟

-٣-

مستشفى هاديـــس التخصصـــي

- استيقظ يا بني! استيقظ!

فتحت عينيّ.. نفس الكابوس.. مستشفى مهجور يأكلها الصدأ ودماء الجثث المتناثرة هنا وهناك.. باب مرسوم عليه زهرة الخشخاش ينفتح.. طائرات تُلقي قذائفها في الخارج.. أشلاء متناثرة طازجة.

- الظلام في داخلي يا أبي.

- تعال إلى النور يا بني.

الطفل في داخلي يصرخ داخل كهف حوائطه من جماجم بشريّة.. تتحرك ناحيته العرائس والدمى.. ترغب في التهامه.. يصرخ.. اصرخ.

- ما ينتظرك في الظلام بشعٌ للغاية.

أشلاء آدمية.. قذائف.. تظهر السمراء الحسناء.. ينتشر الضباب.. تُقبّلني.. أضمها أكثر وأكثر.

- أتراقصينني؟

- ومن غيرك يُسمح له بذلك؟

أراقصها فوق الدمار منغمسة أرجلنا في دماء الآخرين.. تقبلني مرة أخرى وألمح في عينيها الرحيل.. تمسك يدي وتقبلها وتضع ورقة في داخلها وتغلقها عليها.. تهمس لي:

- لا تُضيعها.. من أجل نجاة ورد احفظها.

انتبهتُ.. لم يكن لهذه اللقطة وجود بذلك الكابوس من قبل.. فتحتُ يدي.. تفحصتُ الورقة.. بها كلمة واحدة.. مستشفى هاديس التخصصي.

نظرتُ إليها.. تبدلت.. أرى زوجتي همس في مكانها.. زال الضباب.. هاجمتنا الغربان بعد أن تسلقت الجرذان أجسادنا.. همست وسط الخراب قبل أن يسود الظلام:

- حذارِ من مدن الغربان!

- استيقظ يا بني! استيقظ!

سكون يتخلله صوت عازف الكمان.. ترقب.. ظلام.. ضوء يتسلل.. أرى والدي ممسكًا بمصباح زيتي يشق به ظلام كهف الجماجم البشريّة.. يتحدث مبتسمًا:

- في بلاد بعيدة على أطراف الأرض عاشت الغربان المفترسة منذ قديم الأزل.. أهل تلك المدن اعتادوا عليها.. و تعايشوا في حضرتها مستسلمين.. يعلمون أنهم سيموتون

في أية لحظة في هجوم مباغت ومع ذلك يتعايشون.. في مدن الغربان تنمو الجرذان وتنتشر ويتكاثر العفن ويتفاحش حتى يحتل نفوس البشر..

يقاوم الناس في البداية ثم يترنحون مهزومين، ثم يعاودون الكرة مرات ومرات حتى يألفوا العفن ويصبح جزءًا لا يتجزأ منهم.. تعايشوا في جحيم الغربان ينتظرون تقديمهم وليمةً دسمةً ويؤرقهم ازدياد عدد الجرذان يومًا بعد يوم.. حتى جاء أحدهم.. كاهن متمكن من محادثة الغربان والتفاهم معهم.. وصل إلى اتفاق عجيب.. على أهل المدن كل يوم أن يختاروا من بينهم عشرة أشخاص يقدمونهم لتأكلهم الغربان على عهد بسلام حقيقي! وبدأ الصراع بينهم.. الاختيار المستحيل.. الكل يرفض.. حتى شاع القتل والهرج.. فتغلب القوي على الضعيف وقتل السليم المريض حتى يوفوا بعهد الغربان.. نمت الجرذان أكثر وأكثر حتى هجمت الغربان ذات يوم فوجدت وليمة من الجثث التي لا حصر لها على مدى البصر.. لقد قتل أهل المدن بعضهم بعضًا.. لم يتبقَ منهم أحد.. مرت الأيام بعدها والغربان لا تجد ما تأكله، حتى الجرذان اختبأت في شقوق تحت الأرض حتى مات أغلبها من الجوع، ونجح من تبقى منهم في الهجرة إلى بلدان متفرقة.. من وقتها والغربان تنتظر اللحظة التي تعود فيها أمجادهم.. لا تعطهم الفرصة يا بني!

انطفأ المصباح في يده.. اختفى وجهه.

- استيقظ يا بني! استيقظ!

فتحتُ عينيّ.. صوت عقارب الساعة يخترق السكون حولي.. الساعة السابعة صباحًا.. لوحاتي مبعثرة حولي، وهمس ما زالت جالسة ترمقني بعتاب لم أعد أطيقه.. تجاهلتها.. نهضتُ.. نظرتُ في المرآة.. تناولتُ منشفتي.. ضغطتُ على زر حاسوبي.. جاء صوت عبد الحليم:

- طريقك مسدود مسدود يا ولدي.

وقفتُ تحت المياه الساخنة.. بدلتُ ملابسي.. خرجتُ نحو الغرفة المجاورة.. دخلتها.. أمي ما زالت يقظى.. ورد حبيبتي نائمة كالملاك.. أمسكتُ السجل الصحي.. كتبت.. اليوم العاشر بعد الربعمائة.

تسرب اليأس إلى قلبي.. لم يعد هناك أي طوق للنجاة.. تتزايد الأعداد المصابة بالنعاس الجبريّ يومًا بعد يوم من دون أية حلول للأزمة.. حتى ذلك الرجل المستيقظ الأول لم يُفهم منه أية معلومة تساعدنا.. رجل مجذوب بامتياز.. ظل يتراقص كالأطفال وليس على لسانه غير جملة واحدة قالها لي ولكل الوكالات العربية والأجنبية وفرق التحقيق الدولية من بعدي:

- هل يغسل الماء الذنوب يا هذا؟

تركت السجل وخرجت إلى الشارع من دون واجهة.. ترجلت في تيهٍ -لا يُضاهى- شوارع القاهرة شاردًا.. ربما ينتهي بي الأمر نزيلًا في الغرفة المجاورة للرجل المستيقظ في مستشفى العباسية للطب النفسي.. كم أتمنى ذلك! أن يغيب عقلي.. أو أسقط في مرض النعاس الجبريّ وينتهي الأمر.. زادت أعداد المستيقظين المجاذيب كما أطلقت الصحافة عليهم.. جميعهم غائبو العقل كالمستيقظ الأول.. زاد اليأس في داخلي وصار وحشًا يلتهم كل أمل ممكن.. حافلة تقترب.. أشرتُ لها وصعدت.. جلستُ بين النائمين واحدًا من القلائل المستيقظين الباقين الشاهدين على نهاية هذا العالم.. سينتهي العالم ونحن نيام.. يا لها من نهاية عجيبة!

النوم حتى الموت.. لا حياة.. لا دنيا.. أنت والكوابيس فقط من دون نجاة.. لطالما تساءلتُ.. هل يحلم أولئك الساقطون في تلك الجائحة أحلامًا طيبة وسعيدة؟ أشك في ذلك.

في هذا العالم تغدو الأحلام سرابًا يبدده جيش لا حصر له من الكوابيس.

رأيتُ موجة عارمة من بركان يكاد يلتهم الحافلة.. لم أعد

أبالي.. سألني الرجل المستيقظ في جواري:

- أتعتقد أنها مؤامرة؟

همستُ:

- في مدن الغربان تنمو الجرذان وتنتشر، ويتكاثر العفن ويتفاحش حتى يحتل نفوس البشر.

نعم.. هذا العالم يستحق الفناء.. لقد سمحنا للخبيث أن ينتشر ويستفحل حتى تكاثر العفن.. الجرذان هي تلال من الصمت والجهل والذنوب.. كل ما أراده الغربان حقًا أن يأكلونا أمواتًا، ولن يتمكنوا من ذلك إلا بجرذان تنخر في أجسادنا.. سينتصر الشيطان.. الآن أفهم تلك الجملة.. سينتصر الشيطان وعلامة ذلك أن يُحبس الناس في مدن الأحلام وهم على قيد الحياة.. للشيطان غربان تنفذ مخططاته بنشر الجرذان بين البشر لينتصر في النهاية.. إنها فلسفة تُحترم!

ضحكت.. انخرطتُ في نوبة من الضحك الهيستيري.. لم يبالِ من حولي من المستيقظين ولم يتحرك النائمون كالعادة.. مساعد السائق يهلل بصوت جهوري:

- مستشفى هاديس التخصصي! مستشفى هاديس التخصصي!

انتبهت.. توقفتُ عن الضحك.. تذكرتُ تلك الورقة التي منحتني إياها السمراء الحسناء في كابوس غفوة الأمس.. نهضتُ ناحية الرجل:

- ماذا تقول؟

- مستشفى العباسية! محطة مستشفى العباسية!

- لا.. أنت قلت مستشفى هاديس التخصصي.

- مستشفى العباسية! محطة مستشفى العباسية!

وكأنني عدمٌ أمامه.. تراكمت الأفكار داخل رأسي.. توقفت الحافلة.. نزلت.. وجدتني أقف أمام لافتة مستشفى العباسية للطب النفسي.. فركت عينيّ الحمراوين.

- ما معنى ذلك؟

ركضتُ نحو مكتبي في مديرية الأمن.. كأن تلك السمراء ألقت إلي لغزًا جديدًا في كابوس متكرر.

- لا تُضيعها.. من أجل نجاة ورد احفظها.

وصلتُ لمكتبي.. فتحتُ حاسوبي الإلكتروني وبحثت عن مستشفى هاديس التخصصي.. هاديس هو إله العالم السفلي في معتقد المصريين القدماء.. عثرت على خبر واحد في

جريدة الكترونية.. بيع المستشفيات العامة ضمن خطة خصخصة الحكومة.. وضمن الخبر قائمة بتلك المستشفيات ومنها مستشفى هاديس.. ببعض البحث والتحقيق في خلال ساعة توصلت إلى اسم مشتريها.. الطبيب مصطفى الأسيوطي.. تنهدت مرتكزًا على كرسي مكتبي.. همست:

- مصطفى الأسيوطي!

صديق أبي الوحيد.. لطالما استمعت إلى اسمه من والدي وعن قصة صداقتهما الوطيدة.. لم أره في حياتي وتعجبت كثيرًا من غيابه عن حياة أبي الأسرية، ولكن والدي علل ذلك بأنه كان ضمن المسافرين للخارج لفترة كبيرة وبعد عودته غرق في مشاريعه الطبية.. لم تجمعهما صورة واحدة لكونه لا يحب التصوير مطلقًا.. مصطفى الأسيوطي المنتحر في نفس توقيت انتحار والدي الغامض.. هكذا نشرت نفس الجريدة الإلكترونية خبرًا عن انتحاره.. فكرت كثيرًا حتى قررت سبر أغوار تلك المستشفى بنفسي.. لعلي أجد تفسيرًا لما يحدث.

تحركتُ ناحية الشارع.. أقلّتني حافلة أخرى نحو المنطقة الكائن بها المستشفى.. الأفكار تتلقف عقلي ككرة من الثلج وتتقاذفها بينها بأرجلٍ من نار.

وصلتُ الحافلة.. ترجلتُ.. منطقة سكنية شعبية.. الشوارع

ضيقة.. هدوء غير متوقع.. مررت في الأزقة باحثًا عن العنوان كما التقطته من شبكة الانترنت.. الشرفات بها بعض الناس النائمين وأطفال تلعب ببراءة أمام الأبواب.. نساء يغسلن ملابسهن في أحواض حديدية ويتحدثن كأن شيئًا لم يحدث.. محال مغلقة وبائعون متجولون على وجوههم ابتسامة استفزتني.. ألا يشعر هؤلاء بالكارثة.. صوت صراخ من أحد الشرفات وفتاة تخرج باكية في نحيب شديد:

- أبو العيال نام! أبو العيال غاب منذ يومين!

إحداهن تواسيها من أولئك الجالسات يغسلن:

- نوم العافية يا سماح.. الدنيا والدوام لله.

- ونعم بالله!

كتمت صرخاتها وارتسمت بسمة شاحبة على وجهها.. لتمتزج بابتسامات المارة..

لم تتغير الابتسامة على وجوههم.. للمرة الأولى في حياتي أرى الرضا وجهًا لوجه.. طيلة عمري أسمع عنه في كلام الشيوخ ونصائحهم وجلسات أبي التعليمية في صغري ولكنني لم أقابله أبدًا.. كيف لإنسان وسط كل هذا الخراب أن يرضى! هكذا رأيت في وجوه كل من هو يقظ في هذه المنطقة.. راضون بفقرهم.. بعوزهم.. بنومهم.. حتى بموتهم..

يستقبلون كل شيء بالرضا.

عبرتُ البيوت المتزاحمة ودخلت في أرض زراعية بائرة أرضها خلف تلك المنطقة.. على مقربة من ذلك المكان يظهر مبنى المستشفى.. أمامه ساحة كبيرة ممتلئة بالحصى والمجاري المائية.. لوهلة توقفت.. هذا المكان شبيه بما رأيته في كابوسي المتكرر.. تلك المجاري المائية كانت ممتلئة بدماء مختلطة بأشلاء الموتى.. من كانوا يبتسمون في الكابوس.. اقتربت من المبنى المكسور نوافذه.. مبنى كبير يسوده سواد الأتربة المتراكمة عبر السنين.. تفحصت المكان.. لا أحد يمر من هنا.. مستشفى يسودها الظلام.. تذكرت تلك الجملة وترددت في أذنيّ:

- ما ينتظرك في الظلام بشع للغاية.

لا مجال للتراجع.. تقدمتُ.. دخلتُ من البوابة الخارجية المفتوحة.. المكان مهجور.. هكذا بدا لي.. البوابة الداخلية مغلقة.. اقتربت منها.. برقت عيناي.. مرسوم على بابها زهرة الخشخاش.. فتحته بحذر.. التفتُ ورائي متوجسًا مترقبًا غزوًا مباغتًا لطائرات تُسقط قذائفها ولكن كل شيء ساكن هنا.. هدوء مريب.. هل تداخلت كوابيسي مع واقع لم اعد أحتمله؟ تساءلتُ.. كان صوت دقات قلبي عاليًا متداخلًا ليس لخوف مرتقب فقط، بل لرغبتي العارمة في إنقاذ ابنتي ورد..

إنقاذ البشر.. أو على الأقل فهم ما يحدث.. حسي الأمنى يدفعني دفعًا لإدراك الحقيقة حتى وإن كان مصيري النعاس الجبريّ أو الموت.. شيء ما يربط صاحب هذه المستشفى الدكتور مصطفى الأسيوطي بكل ما حدث في السنة الماضية.. بانتحار أبي وظهور الجائحة وربما بموت زوجتي همس.. حدسي ينبئني بذلك.

تحركتُ سابرًا أغوار ذلك المكان المهجور.. ضوء النهار يتسلل على استحياء عبر النوافذ المكسورة.. أعرف ذلك المكان جيدًا.. ممر طويل.. آخره غرفة العمليات.. التي أستيقظ فيها كل كابوس.. هرولت تجاهها.. فتحتُ بابها المغلق مترقبًا.. دخلت.. يا الله! كل شيء يأكله الصدأ.. الأجهزة والمعدات الطبية والأدوات.. قطن بلون الدم ملقى على الأرض.. أتربة.. تفحصت كل شيء في المكان بحذر شديد.. مرآة متآكلة.. اقتربت منها.. لوهلة رأيت أبي يقف خلفي ويهمس:

- هيبنوس!

التفتُّ سريعًا.. اختفى.. كل شيء ساكن.. جدران زيتية.. تشققات بعرض الحائط أمامي.. صورة معلقة في منتصفه يغطيها التراب.. رجل يحتضن طفله.. صورة لي مع أبي.. تعجبت.. لماذا هذه الصورة هنا؟ اقتربت منها.. نزعتها عن

الحائط.. مسحتُ التراب عن إطارها.. لفت نظرى خلفها رسمة لزهرة الخشخاش.. مددتُ يدي وتحسستها.. الرسمة حديثة.. ما زالت ألوانها زاهية.. كأنها رُسمت اليوم.. في قلب الزهرة لون أسود.. تحسسته.. إنه زر خفي.. ضغطته.. انفتح في الأرض غطاء سريّ.. برقت عيناي.. اقتربت من ذلك الغطاء.. نزعته بقوة لأعلى.. كأنه جزء لا يتجزأ من بلاط أرضية الغرفة.. فجوة دائرية تقود للمجهول.. اقتربت بحذر.. تجسستُ.. فجوة تشبه بالوعة مجاري.. ربما تحتها شبكة مجاري قديمة.. لكن لماذا وُضع الزر وسط الزهرة وفوقها صورة لي ولأبي في مكان كهذا أراه لأكثر من عام في كابوس متكررا! هذه الفجوة المجهولة لي.. سأنزل.. هكذا قررت.. مددتُ قدميّ لأعثر على سلم حديدي يقود نحو الأسفل، وتحركت.. هبطت درجات كثيرة في الظلام.. الصوت يتكرر:

- ما ينتظرك في الظلام بشع للغاية.

- اصمت!

سكت هذا الصوت وتقدمتُ هابطًا أكثر حتى قفزت فوق أرض صلبة.. الظلام شديد.. لا أرى شيئًا على الإطلاق.. تحركتُ متلمسًا الجدران.. تحسستها.. كأنها جماجم بشرية.. تذكرتُ ذلك الكهف المحبوس فيه الطفل في داخلي خلال

الكابوس.. برقت عيناي من هول ما خطر في بالي.. هل ستهاجمني العرائس والدمى وتلتهمني؟ أم ستهاجمني الجرذان المفترسة؟ أعتقد أن الجرذان واقعية أكثر لمن هم في مثل سني.. سأهرب.. أنا مخطىء.. لقد شُلَّ تفكيري.. هرعت ناحية السلم.. تعثرتُ.. وقعتُ.. فجأة سُلط ضوء على عينيّ.. لم أغلقهما.. رأيتُ صاحب ذلك المصباح المسلط على وجهي.. برقت عيناي إنها تلك الفتاة السمراء الجميلة.. الفاتنة السمراء.. همست مبتسمة:

- مرحبًا بك أيها الضابط الهمام.

-٤-

وَسَـــــن

- استيقظ يا بني! استيقظ!

- لستُ نائمًا يا أبي.

- افتح عينيك.

صوته يُلازمني طوال عمري كرقيب لم يتوقف برحيله.. في داخلي ما زلتُ ذلك الطفل الصغير الخائف من مستقبلٍ يفرضه عليه والده.. مستقبل يخالف كل هواياته ورغباته.. ذلك الطفل الذي يتحدث مع الدُّمى كل ليلة ويشكو إليها همه بأنه لن يكون ذلك الهيكل الذي يخطط له والده في المستقبل.. من برع في تنفيذه رغمًا عني.. لم أقوَ حتى على الرفض أو التعبير عن مبتغاي، لا أدري لماذا؟ أحب هو أم احترام أم خوف أم شك في مقدرتي؟ من هذا الذي سيصبح فنانًا أو شاعرًا أو رسامًا أو ربما ممثلًا.. مخرجًا أو أي شيء له علاقة بذلك المجال المبهر؟ رغبات طفولية لم تغادر صدري.. وكلما كبرتُ انزوى ذلك الطفل في داخلي أكثر رعبًا من مواجهة مصيره في معركة غير متكافئة بين أوامر الأب ورغبات الطفل.. حتى صرت ضابطًا كما أراد.. طاعنًا أحلام ذلك الطفل في مقتل.. وظننتُ أنه انتهى للأبد.. لم أكن أدري

أنه انتقل إلى عالم الكوابيس ليطاردني كل ليلة ويُشعرني بخيانتي له.

- المقدم عيسى مختار الجيار!

قالتها والابتسامة الساحرة على ثغرها.. اقتربت.. لها عبير خاطف للروح.. صاحبة طلة خلابة كما كانت دائمًا في كابوسي.. للحظة تداخلت الأفكار في رأسي.. اختلط الواقع بالكابوس.. هل أنا نائم؟ هل هذا جزء جديد من كابوسي المتكرر؟ ربما.. فكل فترة يُضاف له حدث يُزيد من حيرتي.. المكان واحد.. المستشفى المهجور والكهف ذو الجدران المخيفة.. مدت يدها لتصافحني.. ترددتُ في مصافحتها.. لمستُ يدها الناعمة.. صافحتها.

- لا تخف.. هذه ليست جماجم بشرية.. في المرة الأولى التي جئت فيها إلى هنا ظننتُ أنها لبشر مثلنا، ولكن مع الوقت عرفت أنها مجرد ديكور محكم.

- هل نحن في الكابوس؟

ضحكت.. ارتسم القلق والحيرة على وجهي.. ضغطت بيدها على يدي:

- تعال معي إلى النور.

- داخل هذا الظلام!

- الطريق إلى النهار يمر عبر ليل حالك السواد، ولكن في نهايته حتمًا نور ساطع لشمس لا تخلف ميعادها أبدًا منذ أن خلق الله هذه الدنيا.

- هل نحن في كابوسي؟

- تعال معي.

سحبتني وراءها.. عقلي يحدثني أن أوقفها واجذبها تجاهي وأُقبِّل شفتيها واحتضنها قبل أن تتبدل لهمس وتعاتبني.. قبل أن تأكلنا الجرذان وغربانها.. لكنني قاومت ذلك الشعور الطاغي.. هي مغرية للغاية لا شك في ذلك.. جذبتني بسحر لا يقاوم وسط الأهوال والألغاز.

ممر طويل يُذكرني بممر الجن في أحد فصول رواية عفريت العلبة للكاتب عمرو البدالي.. ما بناه والد البطل تحت بيته في شبكة مجاري قديمة ليخدعه به.. ربما تأثري بذلك الفصل حين قرأتها جعله جزءًا من كوابيسي.

جدران تغطيها تلك الجماجم المُصنَّعة من البلاستيك.. هكذا حددت من ملمسها.. وصلنا إلى باب كبير مُغلق وعليه علامة زهرة الخشخاش مرسومة باللون الأحمر.. توقفت.. نظرت لي.. ابتسمت هامسة:

- هل أنت مستعد للعبور؟

- العبور؟

- العبور من باب هيبنوس.

- هيبنوس!

- خلف ذلك الباب ما سيغير حياتك كلية.

مدَّت يدها وفتحته.. ضوء ساطع يهاجم أعيننا.. سحبتني.. دخلنا.

موسيقى أغنية عبد الحليم حافظ (قارئة الفنجان).. شيء من الطمأنينة يتسرب إليّ.. نظرت حولي.. غرفة صغيرة.. حوائطها من زجاج.. مرايا في كل الجوانب حتى أرضها من زجاج.. وفي منتصفها طاولة زجاجية عليها بعض الأجهزة الإلكترونية وكرسي جلدي ضخم..

بعض الأسلاك السميكة الموصلة بين الكرسي والأجهزة.. على الجانب الأيمن سريران من النحاس كل منهما له دوران.. في الجانب الأيسر قفص في داخله كلب بلدي بني اللون نائم..

في مدخل الغرفة يوجد رف زجاجي فوقه بعض الزجاجات الشفافة الممتلئة بسوائل حمراء اللون.. سألتها:

- ما هذا المكان؟

- مطار الأحلام.

- ماذا؟

ابتسمت واقتربت مني.. سألتني:

- أتراقصني؟

- وهل يمكنني أن أُراقص غيرك؟

مدت يدها ووضعتها فوق خصرها وتراقصنا نفس الرقصة.. عيناي تلتهمان عيناها.. قبلتني.. يا الله!.. ابتعدت وترقبتُ اختفاءها لكنها ما زالت أمامي تبتسم.

- لن أخجل من إخبارك بأنني سقطت في حبك في تلك الأحلام.

- ماذا؟

احمرَّ خدَّاها .. حاولت تغيير مجرى الحديث ببعض الجدية:

- أتعرف سيجموند فرويد؟

- نعم، أعرفه.

- لقد قال إن الأحلام تنتج عن الصراع النفسي بين الرغبات اللاشعورية المكبوتة والمقاومة النفسيّة التي تسعى لكبت هذه الرغبات، وهكذا فإن الحلم عبارة عن حل وسط أو محاولة للتوفيق بين هذه الرغبات المتصارعة.. الحلم هو حارس النوم ويقوم بصد أي شيء يقلق النائم ويوقظه، فإذا أحس النائم بالعطش يرى أنه يشرب، وإذا أحس برغبة في التبول سيتبول، وهكذا... إذا شعر النائم بفقد وحرمان من الحب سيحلم بحب جديد.

- لكنني لم أرك في حياتي اليومية من قبل.

- الفرد أدلر تلميذ فرويد يرى أن للحلم وظيفة توقعية أي أن النائم يتنبأ من خلال الحلم بما يمكن أن يواجهه في المستقبل أو ربما يستشرف المستقبل ويراه.

- أنا لا أفهم أي شيء.

- سأخبرك كل شيء من بدايته، ولكن لتعلم أنك الآن لست في حلم أو كابوس أو غفوة أيًّا كانت تسميتك لحالتك وأنت نائم.. أنت يقظ.. يقظ أيها المقدم.

تحركت ناحية الكرسي الجلديّ وجلست عليه:

- لنتعارف.. اسمي وسن.. طبيبة كيميائية.. تخرجت من جامعة عين شمس.. انطوائية إلى حد كبير.. نادرة الأصدقاء..

ومن هؤلاء الأصدقاء النادرين زميلي في الدراسة الطبيب مصطفى الأسيوطي.

- مصطفى الأسيوطي!

- صديق والدك المقرب.

تنهدتُ محاولًا فهم تلك الألغاز من دون جدوى.. ابتسمت:

- لا تحاول.. استمع لي جيدًا وسأفسر لك كل شيء.

- حسنًا.

ترجّلت نحو حاسوب إلكتروني وضغطت على زر فتوقف صوت عبد الحليم حافظ.. التفتث ناحيتي.

- مصطفى الأسيوطي كان صديقي الوحيد.. صديق فقط وليس حبيبًا.. هناك فرق كبير.

- أنا لم أسألك.

- لا تقاطعني من فضلك.

- حسنًا.

- كنا نتشارك كثيرًا من الأحلام لمستقبل مختلف.. كانت لدينا شعلة من الطموح لا تنطفئ أبدًا..

ذات مرة جاءني مصطفى وحدثني عن تلك المادة المضافة

في دستور البلاد.

- أية مادة؟

- «النوم حق مكفول لكل مواطن ويعاقب بالحبس كل من يمنع الآخرين منه لأي سبب من الأسباب».

لم أتعجب حينها.. الجميع يعرف بهذه المادة المضافة منذ عشر سنوات تقريبًا.. وكلنا أَشَدْنا بها وبحماية الدولة لحقوق العاملين بالمنشئات الخاصة ورفض استغلالهم للعمال ومنع نظام الورادي المتتالية، وأن للعامل الحق في الحصول على وقت كافٍ للنوم.. لكن كان لمصطفى رأي آخر.

أخبرني وقتها أنه تقابل مع رجل حكي له قصة لا يعرفها إلا القليلون.. منذ عشر سنوات اخترع أحدهم دواءً يتحكم في يقظة الشخص لأطول فترة ممكنة طالما أنه يقع تحت حيز مجال إشعاعي معين مدروس بدقة.. عقار وإشعاع.. اختراع مذهل استغله رجل أعمال كبير له أنشطة سياسية قريبة من دوائر السلطة، وبه استطاع أن يُبقي عمال مصانعه يقظين لأكثر من شهر كامل من دون الحاجة لغيرهم.. وضاعف لهم أجورهم، وبالطبع تضاعف الإنتاج عشرات الأضعاف..

أي أنه حولهم لآلات لا تكل ولا تطلب الراحة.

بقى الأمر سرًا حتى خرج هؤلاء العمال عن حيز الاشعاع

المسلط عليهم من أبراج خاصة فارتكبوا جرائم قتل متفرقة.. كانت عقولهم غائبة.. أناس ظلوا يقظين لمدة شهر كامل.. فقدوا كل ملامح الإنسانية وصاروا بلا عقول.. قُبض على بعضهم وخضعوا للتحقيق ولم يستغرق المحققون وقتًا طويلًا معهم حتى اكتشفوا كل شيء.. ولنفوذ ذلك السياسي الرأسمالي أمروا بإعدام هؤلاء العمال وتحديد إقامة الرجل فقط، ومنعوا تسريب أية أخبار عن هذا الاختراع، وصادروا العقار، وأتلفوا المجال الاشعاعي بالكامل، وأضافوا تلك المادة في الدستور لحماية الناس في المستقبل.

ذلك الرجل الذي قابل مصطفى هو نفسه العالم الذي اخترع تلك التقنية.. بات مجذوبًا يشحذ في الشوارع.. هكذا تظاهر حتى لا يُحاكم وخاصة أن ذلك المشروع وقتها دار رغمًا عنه.

بعدها أخبرني مصطفى أنه سيُكمل دراسات ذلك الرجل من أجل حلم كبير يراوده.. ماذا لو اختفت الكوابيس التي تراود الناس أثناء النوم بالكامل وحلت محلها أحلامٌ ورديَّة؟

من المؤكد أن يقظتهم ستكون أفضل بكثير.. كان حلمه أن يصبح النوم جنتهم التي يدخلونها كل يوم ويهرعون إليها بعد يوم شاق.. جنة تجعلهم يتحملون مشاق أيامهم.. حلم جميل أليس كذلك؟

باختصار فكر الأسيوطي عكس ما فعلوه في الماضي.. أن

يتحكم في أحلام الناس ليس في يقظتهم.. ظننتُ أنه من المستحيل تحقيق ذلك فلم أبال بأحلامه.. بعدها اختفى عني لفترة حتى اتصالاتي الهاتفية لم يجب عليها.. بحثت عنه ولم أعثر له على أثر.. كان وحيدًا يتيمًا يعيش بمفرده.. وجدت شقته مغلقة منذ فترة، وأخبرني حارس العقار الكائن فيه شقته أنه لم يظهر منذ فترة كبيرة بعد أن ترك شقته وباعها.. ساورني القلق أكثر وأكثر..

بعد فترة زارني الأسيوطي وأخبرني -بعد عتاب طويل مني- أنه سيسافر للخارج وأنه نسى ذلك الحلم الساذج لأنه مستحيل التنفيذ وودعني.. للحق كان غريب الأطوار.. ودَّعته وسارت حياتي بين الدراسة والعمل كمعيدة عشر سنوات لم يتصل بي ولو مرة واحدة حتى قرأت خبر انتحاره في الجرائد.. تأثرتُ كثيرًا.. حزنتُ على صديقٍ ابتعد منذ سنوات ولكن لم تقلّ معزتي واحترامي لعلاقتنا.. مرت الأيام وبدأتُ ألاحظ ظهور تلك الحالات الفرديّة التي تسقط في غيبوبة النوم لأيام وتذكرتُ أحلام الأسيوطي.. ثم انتشر مرض النعاس الجبريّ حتى بات وحشًا ينهش الناس.

- تعتقدين إذًا أن الأسيوطي نفذ أحلامه بالفعل واستطاع اختراع منظومة تجعل الناس يحلمون أحلامًا وردية أثناء نومهم.

- أنت تقف في معمله السريّ بالفعل.

- لكن الناس لا يستيقظون.

- هذا لأنه بالتأكيد وقع في يد شخص انتهازي رأسمالي له أهداف أخرى غير إسعاد الناس.

- أية أهداف تكمن في نوم الناس الدائم؟

- دعني أكمل لك قصتي.

- حسنًا.

- بعد سقوط الناس في الجائحة كنت أخاف النوم ككثيرين وأتناول الأدوية لتساعدني على اليقظة لأطول فترة ممكنة حتى أسقط في غفوات جبريّة.. في هذه الغفوات رأيتُ هيبنوس.

- هيبنوس!

- نسيت أن أخبرك أن ذلك اللقب أطلقته على مصطفى الأسيوطي في مقابلتي الأخيرة معه.. هيبنوس هو إله النوم عند الإغريق.. كان سعيدًا باللقب حينها وقال لي ضاحكًا: «دكتور هيبنوس! لقب رائع».

لا أحد غيري يعرف ذلك اللقب.. ربما أطلقه على نفسه عندما سافر، لا اعرف، ولكنني أول من أطلقه عليه.. لعله

يتذكر ذلك جيدًا.. المهم.. أنني في غفواتي المتتالية وصلتني رسائل منه.

- كيف ذلك؟

- كوابيس متفرقة أراه فيها يراقصني ثم يناولني ورقة وفي كل مرة يتكرر ذلك.

- مكتوب فيها!

- مستشفى هاديس التخصصي.. ترددتُ كثيرًا في القدوم إلى هنا.. هذه المستشفى اشتراها هيبنوس ولم يجددها بل أغلقها كما رأيت.. هذا ما رأيته حينما جئت إلى هنا وعدتُ خالية الوفاض أصف نفسي بالجنون لكوني تخيلت أن لكوابيسي معنىً ما.. لكن الكابوس تكرر في غفواتي التالية وتغيرت الجمل المكتوبة في الورقة.. وصف دقيق لكل شيء وكأنه خريطة توصلني لهذا الكهف السريّ أو غرفة المعمل السريّ التي نقف فيها الآن.

ما زلت أتذكر المرة التي دخلت فيها غرفة العمليات وبحثت عن ذلك الزر المخفي في الحائط، ونزولي عبر السلالم نحو الكهف المظلم، وتحسسي الحوائط، ورعبي من تلك الجماجم المرعبة التي بالتأكيد كانت للتمويه ثم وصولي لهذا المعمل السريّ.. معمل هيبنوس.

ترجلت وَسَن، تلك الفاتنة السمراء، في الغرفة الممتلئة بالمرايا وأكملت حديثها:

- لقد نجح هيبنوس في استكمال اختراع الرجل المجذوب زيفًا.. عندما ولجت إلى هنا وجدتُ مخطوطة مكتوبة بيد هيبنوس مكتوباً في بدايتها «عزيزتي وسن.. إن نجحتِ حقًا في الوصول إلى هنا، فاعلمي أنني هارب مطارد وأن نجاتي في يدك ويد ابن مختار الجيار».

- أنا!

- نعم، في هذه المخطوطة حكى هيبنوس كل رحلته إلى الخارج وكل التفاصيل العلمية لاختراعه ومعمله المصغر هذا لفكرته الملائكيّة وتجاربه ونجاحه الساحق على أربعة أفراد وكلب، حتى عرض عليه والدك ضم رجل أعمال ورئيس جمعيات خيرية لمشروعهما.

- هل شاركه والدي؟

- نعم.. والدك كان ضلعًا رئيسيًا في هذه التجارب.. كان مسئولًا عن توفير الحالات المختارة بعناية لعمل التجارب عليها.. ناهيك بأنه كان صديق هيبنوس الوحيد منذ الطفولة.

- لم أرَ ذلك الرجل ولو مرة واحدة في حياتي.

- هكذا هو مثلي.. يحب العزلة على الدوام.. لا يهوى الصحافة.. لا يهوى الظهور.. لم يُصوَّر ولو مرة صورة واحدة.

وجدتُ نفسي مسئولة عن إنقاذه.

- لحظة.. ألم ينتحر هيبنوس؟

- كلا.. هيبنوس حي في مكان خفي.. هذا تفسير ما حدث.. ذلك الرجل صاحب الأعمال الخيرية انقلب على أبيك وهيبنوس ووصل النزاع بينهم إلى التهديد بقتل المقربين لوالدك.. أنت وابنتك وأمك.. هيبنوس لم يكن له أحد يبتزونه لأجله أكثر من والدك.. فقررا الانتحار في نفس التوقيت حماية لكم، وعاد هيبنوس إلى هنا لينتحر في ذلك المكان الخفي.. فكر.. تردد.. ثم اتخذ قرارًا مغايرًا.. كتب تلك المخطوطة.. يقول فيها: (لا أستطيع قتل نفسي وفي نفس الوقت لن أتحمل تعذيبهم وسأخبرهم بكل شيء) حينها خطر له فكرة الانتحار الوهمي والخطة البديلة.. حاول الوصول إلى والدك حينها ليُعدل خطتهما، ولكنه كان قد انتحر بالفعل وهرب هو.

- هرب؟

- نعم، اتفق مع صحفي بنشر خبر انتحاره وتزييف جثمانه بالمال.

امتلأت عيناي بالدموع غيظًا:

- هيبنوس صديق والدي الوحيد تركه ينتحر وهرب هو!

- هناك شيء آخر لا بد لك أن تعرفه.. هيبنوس أخفى عن مطارديه سرين.

- أي سرين؟

- سر اليقظة وسر زرع الأفكار.

- زرع الأفكار!

- الحياة ما هي إلا إدراك حسي لنبضات المخ.. عيناك تريان.. عقلك يتفاعل.. كل ما فعله هيبنوس هو حذف الوسيط وذهب مباشرة إلى المخ.. المخ المالك للخيال بكل ما فيه من جنون.. واستخدم العقاقير لتجعله يعتقد أن الخيال حقيقة.. سأشرح لك التقنية سريعًا من دون الدخول في تفاصيل علمية معقدة..

اختراع هيبنوس كالتالي: عقار يُدخل الناس في حالة النوم، وعقار آخر يساعدهم على اليقظة، وعلى المُنفِّذ للمشروع أن يُعادل بين العقارين بالتساوي حتى يتمكن الناس من النوم واليقظة بشكل طبيعي وفقًا لإرادة عقلهم الباطن، وذلك ضرورة بوجود العقارين في دمائهم فيمكنه

بسهولة تنفيذ باقي اختراعه.

حلم ورديّ واحد مُعلَّب كما يقولون.. حلم كبير عكف هيبنوس على خلق مشاهده الثرية.. حلم واحد ولكنه متعدد الرؤى.

- كيف؟

- كالبرق مثلًا يحدث في السماء ويراه كل الناس ولكن لكل منهم له قصة مغايرة عن الآخر.. الحدث الكبير واحد ولكنه متعدد الرؤى.. هل فهمت ما أرمي إليه؟

- نعم.

- بثُّ هذا الحلم شبيه بآلة عرض السينما لها جهاز استقبال وجهاز إرسال.. المُستقبل هو مخ الإنسان المتأثر بالعقارين معًا، أما طريقة التوصيل فهي عبارة عن إشعاعات تخرج من أبراج الهواتف المحمولة وتسيطر على من يسقطون تحت ذلك الحيز، بشرط تناولهم للعقارين إما حقنًا أو عن طريق المعدة.. اختراع جميل النوايا، ولكن يبدو أن ذلك الرجل صاحب الأعمال الخيرية كان له رأى آخر.. خاصة بعد أن اخترع هيبنوس وسيلة عجيبة لزرع الأفكار داخل عقول الناس في هذا الحلم المجمع.

- من الصعب على عقلي تفهم كل ما تقولين.

- سأوجزلك ما حدث.. اخترع هيبنوس الحلم الورديّ المُعلّب والعقارين وجربه هنا في هذا المعمل الصغير السريّ، وبعدها وافق على تعميم المشروع كمشروع خيريّ، بيد الرجل الذي رشحه والدك.. هذا الرجل أراد عكس نوايا هيبنوس.. أن يستغل الناس.. خاصة بعد زرع الأفكار في رؤوسهم.. تصارعوا.. هددهما.. انتحر والدك وهرب هيبنوس.. ولكنهم نجحوا في الوصول إليه.. وطبقًا لمخطوطة هيبنوس هم لا يملكون غير تركيبة عقار واحد(عقار النوم فقط) وجهاز كبير للبث الإشعاعي في معمل كبير خاص عمل عليه هيبنوس لشهور، ولكنه استشعر غدرهم فأخفى سر تركيبة العقار الثاني (عقاراليقظة) وكذلك تقنية زرع الأفكار.. مات والدك وأمسكوا به هو.. في اعتقادي أنه -في غفلة منهم- تناول العقار الخاص بالنوم فهرب منهم داخل الحلم المُعلب.. الحلم القادرون هم على اختراقه والتعديل فيه.

يبدو أن هذا الرجل ذا الأعمال الخيرية كان مجرد واجهة لعدة رجال من مختلف البلدان في العالم لذلك طالت الجائحة كل العالم.. لقد نشروا العقار عبر مياه الشرب القادمة من الأنهار.. كما اقترح هيبنوس.. لذلك كل من يشرب المياه الجارية ويقع تحت تأثير إشعاعات أبراج الهواتف يدخل في نوم جبريّ لا يصحو منه إلا إذا تناول أو حُقِن بعقار اليقظة..

وقفوا عاجزين مكتوفي الأيدي أمام جثمان هيبنوس النائم.. لا يستطيعون إيقاظه من دون عقار اليقظة ولا إصابته بأي سوء .. لم يعد أمامهم فرصة غير اختراق الحلم المُعلب بطريقة ذكرها لهم هيبنوس وأن يبحثوا عنه داخله.. أملًا في العثور على العقار الغائب وتقنية زرع الأفكار.. في ذلك التوقيت خاطر العقل الباطن لهيبنوس النائم بالظهور في غفواتي ليقودني إلى هنا لأنفذ خطته البديلة.. خطة الإنقاذ.. أنا وأنت.

- وماذا في يدنا نحن؟

- أترى تلك الزجاجات الشفافة والسائل الأحمر في داخلها؟

- نعم.

- هذا هو عقار اليقظة.. لقد عملت على تصنيع عقار اليقظة بدقة كما جاء في مخطوطة هيبنوس.. منذ ذلك الوقت اختفى هيبنوس تمامًا من غفواتي.. كأن عثوري على مخطوطته كان إعلانًا لاختفائه.. لأيام اخترقت الحلم المُعلَّب من هنا وبحثت عنه دون جدوى حتى اكتشفت أن ذلك الحلم المُعلب ليس منفصلًا عن باقي أحلام البشر.. هناك صلة ما.. لذلك رأيتك.. في البداية فكرت أنك تناولت المياة المشبعة بعقار النوم وغرقت في نعاس جبريّ، ولكن حينما خرجت من هنا وذهبت لبيتك وراقبتك من بعيد وجدتك ما

زلت على قيد اليقظة، ففهمت أنها غفوات وأن جميع الأحلام متصلة بطريقة ما بالحلم المُعلب، وربما أولئك المطاردون لهيبنوس فعلوا شيئًا أفسد نظامه أو ربما هو فعلها قبل أن يدخل في النوم الجبريّ رغمًا عنهم.. ذلك يفسر أيضًا قدرة هيبنوس على العبور من الحلم المُعلب إلى غفواتي مسبقًا.. المهم لقد قُدتك إلى هنا بنفس الطريقة التي فعلها معي هيبنوس عبر الكوابيس.. لخوفي الشديد من مراقبة أولئك المطاردين لك.. لا تنسَ أن والدك كان مهددًا بكم هو الآخر، ومن الطبيعي مراقبتك فربما تقودهم بأي حال إلى ما أخفاه هيبنوس عنهم..

– ما يدريكِ؟ فربما هم يتتبعوني الآن وربما نجدهم هنا يحاصروننا.

- إصابة ابنتك بالنوم الجبريّ أكدت لهم أنك لا تعرف شيئًا.. فلن تترك ورد من دون عقار اليقظة إن كان هيبنوس عرفك سره.. ولكن هذا لا يعني أنهم ألغوا مراقبتك.. ربما خففوها بعض الشيء.. أنت على قائمة شكوكهم، فما بالك لو ظهرت معك فتاة طبيبة كيميائية بالبحث في تاريخها سيعرفون أنها كانت الصديقة القريبة من هيبنوس قبل سفره.

أخرجتُ حينها سلاحي من غمده وأشهرته في وجهها.. ابتسمت واقتربت مني:

- لن يفيد عقار اليقظة ابنتك كثيرًا من دون إنقاذ هيبنوس.

فكرتُ.. ترددتُ.. أنزلت سلاحي متوترًا وسألتها:

- حسنًا.. والآن نحن هنا.. كيف ننقذه؟

- علينا أن نصل لهيبنوس في الحلم المُعلب المتداخل مع كوابيس الناس.. علينا أن نعرف سر زرع الأفكار ونتخلص منه.

- نتخلص ممن؟

امتلأت عيناها بالدموع بغتة.. ارتعش صوتها.

- من العقل الباطن لهيبنوس.. اسمعنى جيدًا.. هذه رغبته يا عزيزي.. هذا ما طلبه مني في مخطوطته.. لقد جَبُن هيبنوس عن الانتحار.. لقد فكر كثيرًا في الذهاب إلى ذوي السلطة للاحتماء بهم ولكنه تراجع، فمن يدريه أن يفعلوا مثل مطارديه ويستخدموا اختراعه لمصالحهم أو يمتنعوا عن محاربة هؤلاء على أقل تقدير؟ لم يكن أمامه غير ذلك.. الموت أو الجنون واختار هيبنوس ثانيهما.

- أنتِ تطلبين مني أن أقتل رجلًا كان صديق والدي الوحيد.

- لا، لم تفهم مقصدي، سنقتله في الحلم وليس في الحقيقة.. لو عثرنا على هيبنوس في الحلم المُعلب وقتلناه

قبل أن يصلوا إليه هم سيفقد عقله في الحقيقة.. هل تتذكر نزيل مستشفى العباسية الغرفة رقم ٦٦ .. دكتور مسرور الضبع.. ذلك الرجل هو أحد الأربعة الذين أُجريت عليهم تجارب هيبنوس وأول من سقط في نوم جبريّ بعد عودته إلى المصحة.. لقد استيقظ أليس كذلك؟

- نعم، ولكنه غائب العقل تمامًا.

- بالضبط.. لأنه قُتل في حُلمه المُعلب وليس في دمه عقار اليقظة فاستيقظ غائب العقل.. وهذا ما يريده هيبنوس.. أن نبحث عنه ونصل إليه ونقتله في الحلم فيغيب عقله وينتهي الأمر.

- لماذا لا ينتحر داخل الحلم المُعلب وينتهي كل شيء؟

- النظام الذي وضعه هيبنوس في حلمه الورديّ لا يحوي الانتحار أبدًا.. وإن افترضنا أنه بعد تداخل الكوابيس مع نظام الحلم المُعلب يمكنه فعل ذلك، فهو لا يريد الانتحار.. لا يقوى على قتل نفسه.. لو أنه يستطيع لفعلها مع والدك وانتهى الأمر.. القصة شبيهة بمن يبحث عن قاتل محترف ليخلصه من حياته التي لا يمكنه فعلها بنفسه.

- اللعنة على السيد هيبنوس وحسه المرهف!

قلتها ساخرًا.. اقتربت مني وأمسكت بيدي ناظرة في

عينيّ:

- سنفعلها معًا.. إن نجحنا سننقذ البشر أجمعين وعلى رأسهم (ورد)، وإن فشلنا سيصلون لهيبنوس داخل الحلم ويجبرونه على إخبارهم بتركيبة عقار اليقظة.. سيجبرونه على اليقظة وحينها لن يتحمل تعذيبهم.. سيخبرهم بكل شيء.. سيتمكنون من زراعة الأفكار داخل أحلام البشر.. داخل عقولهم.. حينها فقط سيتحول البشر إلى كائنات بشعة عبيدًا لهؤلاء ينفذون أحلامهم وطموحاتهم مهما بلغت قذارتها.. إما نجاة أو فناء.. الأمر معلَّق بنا.

- لماذا لم تفعلي أنت ذلك؟

- حاولتُ.. وفشلتُ.. أولئك المطاردون انتشروا بحثًا عن هيبنوس في كل مكان في الحلم.

- ما الذي يجعلني أمنحك ثقتي؟ ربما أنتِ تعملين مع مطارديه.. وأين تلك المخطوطة التي تركها لكِ هيبنوس؟

- شيء بسيط.. هذا العقار الذي وراءك هو عقار اليقظة.. ذلك ما يبحثون عنه .. خذه وجربه على ابنتك.. ستعرف حينها أنني معك في نفس الخندق.. أما بالنسبة للمخطوطة لقد كتب هيبنوس في آخرها (عليكِ بحرقها بعد قراءتها يا وسن حتى لا يصل غيرك إلى محتوياتها).

تحركت ناحية العقار ونظرت لسائله الأحمر شاردًا.. همست لي:

- ربما يكون الوداع الأخير.

-٥-

الحلـم الـــورديّ

لم أستيقظ كما توقعتُ من غفوة جديدة داخل غرفتي الفوضويَّة.. خرجتُ من مستشفى هاديس التخصصي وعقلي يتعذب على صفيح ساخن تفترسه تلك القصة العجيبة التي سمعتها منذ قليل من الحسناء السمراء وسن.. صعدتُ إلى حافلة خاصة وجلستُ هذه المرة في جوار أحد النائمين.. أخرجتُ من جيبي حقنةً مملوءةً بذلك السائل الأحمر المسمَّى عقار اليقظة.. لن أخاطر بحياة ابنتي ورد مهما كان.. ما يُدريني بصدق وسن! .. ترددتُ في دب السن المدبب في حاوية الجلوكوز الموصلة بالرجل النائم في جواري.. لست أنا من يُخاطر بحياة الآخرين.. كانت مهمتي ووظيفتي هو حماية الناس من المخاطر.. للأسف لقد تغيرت.. يصرخ الطفل في داخلي بلا توقف.. الدمى تلتهمه في الظلام البشع لا أنا مُنقذه ولا هو يموت.. أفرغتُ السائل بالكامل.. أخفيتُ الحقنة وجلست أترقب الرجل متوترًا.. دقائق قليلة وفتح الرجل عينيه في هدوء متثائبًا، وسألني بعد أن التفت حوله:

- هل وصلنا مصر الجديدة؟

تراقصت الفرحة المؤقتة في عينيّ.. قبلتُ خد الرجل

الأيمن في تعجب منه.. تركته وسط مئات التساؤلات عن ذلك الجلوكوز الموصل به وعن أولئك النائمين.. بل ووقوعه فريسة للمحققين بعد قليل كونه أحد المستيقظين، ولكنه أهم بكثير منهم لأنه حاضر العقل.. ضحكت.. ياللغباء المسيطر على عقولنا نحن المحققين! أي معلومة نريدها من رجل نام واستيقظ..

- عليك أن تعترف بوضوح ماذا كنت تفعل وأنت نائم؟ لا تراوغ.

انخرطتُ في نوبة من الضحك الهيستيري وأنا أهبط من الحافلة وأركض ناحية بيتي.. من شارع إلى آخر حتى وصلت لاهثًا آملًا في النجاة.. دخلتُ شقتي وولجتُ إلى غرفة ابنتي ورد.. ما زالت أمي مستيقظة حمراء العينين.. أغلقت الستائر وفتحت ضوء المصباح العلوي.. تنهدتُ مبتسمًا.. همست أمي:

- هل أنت بخير يا عيسى؟

- سأكون بخير الآن يا أمي.

اقتربتُ من ورد.. أخرجتُ زجاجة صغيرة ممتلئة بعقار اليقظة.. سحبتُ منها القليل وحقنته في حاوية الجلوكوز ووقفت مترقبًا عودة الروح إلى حياتي بالكامل.. ارتعشت

عيناها.. فتحتها.. استيقظت ورد.. ابتسمت:

- أبي!

ارتميث في أحضانها أُقبِّل كل شبر في وجهها.. عمَّت الفرحة وجه أمي.. قطعت ورد ذلك الاحتفال المبالغ فيه بالنسبة إليها:

- ما الأمر يا جدتي؟ هل سنذهب إلى النادي اليوم أم سنمكث في البيت مع أبي؟

ضحكنا من دون أن نعرف علام نضحك.. فقط رغبنا في ذلك.. جهزت أمي لنا وجبة خفيفة من الغذاء وتناولناها معًا في جو مفعم بالدفء الذي طالما افتقدته.

تخلصت من بقايا عقار اليقظة مترددًا بعدما وضعت لأمي وورد خارطة طريق عليهما تنفيذها بحذافيرها في الفترة القادمة حتى لا تقعا فريسة للنوم الجبريّ.

أغلقتُ كل صنابير المياه وطلبت من أمي عدم الشرب مطلقًا إلا من زجاجات المياه المعدنية وكذلك الطبخ.. تعجبت.. أخبرتها أن المياة الجارية هي سبب ما يحدث.. إن فعلت ذلك بدقة فلن تسقط في الجائحة أبدًا.. ستنام بهدوء من دون خوف وكذلك ورد ولكن حذرتها من ظهور ورد خارج المنزل مهما كان السبب أو معرفة أحد أنها استيقظت..

ربما يعرضهما ذلك للخطر.. عقدتُ العزم على إنقاذ البشر وعلى اللحاق برحلة الحلم الورديّ المجهول في مقعد مجاور لوسن.. ودعتُ أمي بعد تأكيد تعليماتي عليها وخرجت.. اتجهتُ إلى مكتبي في مديرية الأمن أفكر في الطريقة التي أجمع بها باقي ركاب تلك الرحلة العجيبة.. تذكرتُ كلمات وسن:

- لن نستطيع اختراق الحلم الورديّ هكذا على المشاع.

- ماذا تقصدين يا وسن؟

- هيبنوس كما خاطر وظهر في غفواتي وقادني إلى هنا، ظهر أيضًا في غفوات آخرين وترك لنا رسالة مُشفَّرة.

- أية رسالة؟

- سينتصر الشيطان وعلامة ذلك أن يُحبس الناس في مدن الأحلام وهم على قيد الحياة. إمضاء هيبنوس.

- أثناء تحقيقي مع المستيقظ الأول تعثرتُ في هذه الجملة التي كُتبت بالدماء على حائط غرفته قبل ولوجه إلى النوم الجبريّ.

- أثناء غفواته قبل سقوطه في المرض.

- نعم.

- قلت لك إن هذا الرجل كان من ضمن المجموعة الذين وقع عليهم اختيار هيبنوس ووالدك للخضوع للتجارب المعملية.

- هل استعان هيبنوس بالجان يا وسن؟

- لا أعرف.. ربما.. كل ما أعرفه هو أنني الوحيدة التي أطلقت عليه لقب هيبنوس منذ عقود وأن تلك الرسائل لي.. سأخبرك بباقي الأسماء التي خضعت للتجارب.. عليك أن تعرف أن تلك الجملة كُتبت على حوائطهم جميعًا.

تعجبت.. ساد الصمت بيننا.. اقتربت مني وهمست مبتسمة:

- لست وحدك من تجيد البحث والتنقيب عن الحقائق يا سيادة المقدم.

أول ما خطر في بالي عند معرفة قصة المستيقظ الأول أن أبحث عن مماثليه وتأكدت أنهم جميعًا من أوائل الساقطين في الجائحة.. كلهم نائمون جبريًا.. وجميعهم كُتبت على حوائطهم باختلافاتها نفس الجملة.. نفس التوقيع.. هيبنوس.

- ماذا يريد هيبنوس؟

- أن ننفذ وصيته.. سنخترق الحلم الورديّ أنا وأنت.. لكن في نطاق ضيق.. نطاق رؤية العقل الباطن لأولئك الخاضعين

مسبقًا لتجاربه.. من أرسل على حوائطهم نفس الرسالة لأتأكد أنني على الطريق الصحيح.. لأصدقه بعد أن قرأتها في مخطوطته.

أخرجت ورقة كانت في جيبها وناولتني إياها:

- الآن عليك أن تُحضر أولئك النائمين الواردة أسماؤهم ومعلومات عنهم في تلك الورقة إلى هنا.. سنخوض تجربة الاختراق متصلين برؤياهم هم.. سنرى الحلم الورديّ من وجهة نظرهم حتى نصل إلى هيبنوس.. تلك هي الطريقة الوحيدة.

فتحت الورقة مجددًا في مكتبي.. قرأتها للمرة الأخيرة قبل أن أتحرك لأُنفذ خطتي.

١- دكتور مسرور الضبع.. أستاذ التاريخ المقارن كلية الآداب جامعة عين شمس ونزيل غرفة رقم ٦٦ في مستشفى العباسية للطب النفسي.

٢-وداد الحمراء.. اسمها الحقيقي وداد سيد حمدان.. كبيرة أخواتها.. وماتت أختها الصغرى منذ سنوات بسبب حادثة اغتصاب، وقتل ولم يُعثر على الجاني حتى اللحظة.. نائمة في بيت منافٍ للآداب وقُبض عليها مرتين من قبل في قضايا آداب.

٣-ماهر سعفان.. الابن الوحيد لسعفان الخيَّال أشهر دجال في منطقة الدرب الأحمر.

٤-خالد عدس.. طفل في العاشرة من عمره.. قتل فتاة بالخطأ في عراك وحُكم عليه بالسجن ١٠ سنوات في مركز للإصلاح والتأهيل تابع لوزارة الداخلية.

٥-حجاج منصور.. عامل في مصنع الحديد والصلب حُكم عليه بالسجن خمس سنوات في قضية سرقة.

يوم واحد كان كفيلًا بجمع الخمسة بسهولة ويسر في عربة إسعاف تابعة للحكومة بخطاب زائف موجه من وزير الداخلية لخضوع هؤلاء للعلاج على نفقة الدولة.. عملي كمقدم شرطة سهل لي الكثير في هذه المهمة خاصة في حالة الفوضى الشرطيّة المنتشرة بسبب تلك الجائحة.. قبل منتصف الليل وقفت سيارة الإسعاف أمام مستشفى هاديس بعدما تأكدتُ من هروبي من أي مراقبة محتملة، وحملتُ النائمين الواحد تلو الآخر إلى قاعة الحلم السفليّة، وأبعدتُ سيارة الإسعاف عن المنطقة وعدتُ.. أغلقتُ الأبواب ورائي ووقفت أنا ووسن داخل المعمل السريّ والنائمون الأربعة مستلقون فوق الأسرَّة وخامسهم مسرور الضبع يضحك مهللًا:

- هل يغسل الماء الذنوب يا هذا؟

وفي جوارهم القفص النائم فيه الكلب.. نظرث ناحيته متعجبًا.. ابتسمت وسن:

- لا تفكر كثيرًا.. ذلك الكلب كان سادسهم.

الآن عليّ أن أُخبرك بقواعد الحلم الورديّ قبل الاختراق.. استمع لي جيدًا.

تحركت وسن بجدية شديدة كمن تُلقي محاضرة هامة:

١- الحالم لا يعرف أنه يحلم.. إذا أدرك عقل الحالم ذلك فإنه سيحاول الاستيقاظ من حلمه، وفي حالة النعاس الجبريّ لا يقوى العقل على إيقاظ نفسه فتكون النتيجة هي استيقاظ الشخص غائب العقل.. إذًا القاعدة الأولى: لا تُخبر أحدًا أبدًا أنه يحلم.

٢-المخترقون للحلم فقط هم من يعرفون أنهم يحلمون مهما تعددت مستويات الحلم، وذلك يعتمد على سوار فضي يستقبل الإشعاع ويعالجه قبل أن يوصله إلى مخ المخترق.. إذًا أنا وأنت فقط سنكون مدركين كليةً أننا نحلم ومع ذلك لن يحاول عقلنا الاستيقاظ بسبب ذلك السوار الفضي.

القاعدة الثانية: لا تفقد ذلك السوار الفضي أبدًا مهما حدث.

٣-الموت في الحلم يجبر الشخص على الاستيقاظ وكما قلت

سيستيقظ غائب العقل.

القاعدة الثالثة: لا تقتل أحدًا مهما كان في الحلم وحافظ على نفسك بكل طريقة ممكنة؛ فموتك في الحلم يعني فشل المهمة تمامًا.

قاطعتها:

- لحظة.. ألن تحقنينا بعقار اليقظة بنسبة مساوية لعقار النوم في تلك التجربة حتى يكون نومنا طبيعيًا ونتمكن من الاستيقاظ بأمان في أي وقت يريد عقلنا الباطن؟

- هذا يجعل عثورنا على هيبنوس مستحيلًا يا عيسى.. ربما نقترب منه ويحدث أي شيء فنستيقظ وحين ندخل مرة أخرى في النوم لن يكون أبدًا في نفس النقطة.. لا يمكن أن تحلم نفس الحلم إن استيقظت في منتصفه.

- لكن هذا يعرضنا للضياع للأبد.. كيف سنعود؟

- حينما ننجح في مهمتنا ونقتل هيبنوس داخل الحلم سنخترق أحلام والدتك ونقودها إلى هذا المكان لتحقنا بعقار اليقظة ونستيقظ.

- هذا رهان في غير محله.. كيف سنخترق أحلامها؟

- نحن مخترقون لا تنسى ذلك.. لطالما ارتديت هذا السوار

الفضي فلك مميزات لا حصر لها.

حالة من الصمت لا يجد عقلي خلالها إلا المخاطرة؛ فإنقاذ البشر معلق باختياري.. سألتني:

- هل أُكمل القواعد؟

أشرتُ لها بالإيجاب.

٤- في الحلم الورديّ يحلم الناس بحرية وينامون أيضًا كأنها حياتهم الطبيعية لكنهم لا يتذكرون أحلامهم تلك، فعليك أن تعرف أننا سننام داخل الحلم وسنحلم أحلامًا داخل أحلام، ولكننا لن ننسى أيًّا منها مهما تعددت عكس الحالمين.

القاعدة الرابعة: النوم حق مكفول لكل حالم لا تمنع نفسك منه.

٥- لن يقوى عقلك على التمييز أحيانًا بين الحلم والواقع فحاول أن تركز كل اهتمامك في البحث عن هيبنوس.. ذلك الهدف الرئيسي لا تحد عنه.

القاعدة الخامسة: لا تحد عن الهدف.

٦-البعض يحلم بنفسه في شخصيات مغايرة عن حياته الواقعية والباقي يحلم بنفس شخصيته وذلك تبعًا لرؤية كل شخص للحلم الورديّ.

القاعدة السادسة والأخيرة: استسلم للعقل الباطن المُحرك لما ترى في الحلم.

آخر شيء.. معنا في مجموعتنا هذه رجل فاقد العقل.. ربما نقابل في الحلم الورديّ من وجهة نظره أشياء عجيبة فلا تتفاجأ وتحمَّل.. أيضًا هناك تداخلات بين الكوابيس والحلم الورديّ.. الآن انتهيت.. هل أنت جاهز أيها المقدم؟

أشرتُ لها بالإيجاب متنهدًا هامسًا:

- كابوس الحلم الورديّ.

تحركت في الغرفة وتأكدت من توصيلات الأسلاك بين النائمين جميعهم ومسرور الجالس فوق سريره العلويّ حتى الكلب في رسغ كل منهم.. ثم قامت بحقن مسرور الضبع بعقار النوم فنام في لحظتها.. حاوية ضخمة من الجلوكوز تُجرجرها وتُوصل منها لأجسادهم.. تضع عقار النوم في الحاوية.. ارتدينا سوارين فضيّين على معصمينا الأيسرين وجلسنا معًا على ذلك الكرسي الجلدي الكبير بجوار بعضنا البعض ملتصقة أجسادنا.. توصلنا بحاوية الجلوكوز.. تتنهد.. تبتسم:

- مستعد؟

- أتمنى ذلك.

مدت يدها واحتضنت يدي.. حالة عامة من الاسترخاء.. السائل يتسرب في دمائنا.. نظرتُ في عينيها الساحرتين.. صوتها يبتعد:

- أيها السادة نحن الآن على مشارف رحلة الأحلام فاربطوا أحزمتكم واستعدوا.

ضباب ينتشر.. سقطتُ في بحر من الضباب.. غبتُ عن الوعي.

أرض الأحـلام

صمتٌ لا يتخلله شيء.. ضبابٌ كثيفٌ على مدى البصر.. ورودٌ زاهية الألوان تتساقط من فوقي على أرضٍ غير مستوية بيضاء ناصعة تخفي قدميّ وكأنني أقف فوق سحب كثيفة.. مكانٌ بلا سماء.. فقط فراغ مضيء.. صوت موسيقى أوبرالية يتسلل إليّ.. أراني وحيدًا في مكان شاسع.. بغتة تحركت بي الأرض نحو الأمام.. لحظة.. أدرك أنني داخل قطار من الذهب جدرانه من الزجاج الشفاف يخترق الضباب.. صوت صافرته يحفز في ذاكرتي ذكرى جميلة.. عندما كنتُ صبيًا كانت أمي توصلني إلى مدرستي كل يوم بالقطار رافضة أن تقلّنا سيارة أبي الحكوميّة أو الشخصيّة.. عللت ذلك برغبتها أن تُريني الناس عن قرب.. الشوارع.. الحياة عمومًا وألا أشاهدها من خلف زجاج سيارة تعزلني عن العالم.. التفتُ حولي مبتسمًا.. قطار فارغ ليس في داخله غير كرسيين متجاورين.. الضباب يزداد خارجه.. رجل جالس في جواري يرتدي بذة بيضاء اللون ينظر ناحيتي مبتمسًا:

- أهلًا بك في أرض الأحلام يا عزيزي المخترق.

- أتعرفني؟

- كلا.. ولكن السوار الذي حول معصمك يجبرني على استقبالك قبل ولوجك إلى الحلم الورديّ.

- من أنت؟

- أحد حراس الأحلام.. لا يجوز لأي مخترق أو مبرمج أن يعبر إلى ذلك العالم من دون ملاقاتنا.. علينا تسجيل كافة البيانات.. هكذا برمجنا هيبنوس.

- هيبنوس! أتعرف مكانه؟

- لا.. لكنني أعرف أن جميع معلوماتنا سريَّة للغاية ولا يطَّلع عليها غير هيبنوس.. لأنه ببساطة يملك الكلمات السريَّة.

- كلمات سريَّة!

- إننا نتحرك وفقًا لتعليماته المسبقة التي يغيرها كيفما يشاء بمجرد دخوله على جهاز التحكم الرئيسي الخاص به وإدخال الكلمات السريّة.

- رجال آليُّون.

كان القطار منطلقًا بنا والضباب يحجب الرؤية كليةً.. صوت الموسيقى لم ينقطع.

- والآن أعطني يدك.. اليسرى.

ناولته يدي اليسرى متعجبًا.. أخرج شاشة صغيرة أشبه بحاسوب الكتروني صغير.. وضع كف يدي فوقها للحظة فأضاءت الشاشة.. قرأ شيئًا ثم نظر لي.

- عيسى مختار الجيار.. مقدم شرطة.. متزوج ولديك طفلة اسمها ورد ووالدك اللواء مختار الجيار.. أليس كذلك؟

- نعم.

- هذا أشبه بمنظومة السجل المدنيّ عندكم.

- أين وسن؟

للتو لاحظت غيابها.. أجابني الرجل سريعًا.

- أرض الأحلام لها أبواب عديدة وعلى كل باب حارس.. هذا إن كانت من تبحث عنها مخترقة مثلك أما إن كانت زائرة عاديّة فلن تقابل حراس الأحلام أبدًا.

- لا، هي ترتدي نفس السوار.

- هل هي المرة الأولى لها مثلك؟

- لا، لقد فعلتها كثيرًا.

- حسنًا.. لقد دخلت في الحلم الورديّ مباشرة.. نحن فقط نظهر في المرة الأولى..

هل لي أن أطلب منك طلبًا أيها المخترق؟

- تفضَّل.

- إن قابلت السيد هيبنوس فأخبره أن الحلم الورديّ قد أصبح فاسدًا.

- ماذا تعني؟

- هو سيفهم.. عليك فقط إخباره.

تنهدتُ.. همستُ لنفسي:

- لعلي أعثر عليه حقًا.

بدأ الضباب يقل رويدًا رويدًا.. توقف القطار.. اختفى الرجل.. فجأة تغير المكان من حولي.. وجدتني داخل أحد الأقفاص.. برقت عيناي.. أمامي سبع مفترس يزأر بقوة.. عدتُ للخلف مرتبكًا.. بحثث بعينيّ سريعًا عن مخرج من هذا القفص فلم أجد له بابًا.. رجل يمر خارج القفص ممسكًا بأكياس غزل البنات ويزمر في زمارته.. صرخت به:

- النجدة!

لم يلتفت لي وابتعد.. مر وراءه رجل آخر ينادي:

- ٤ لتر الكلور بجنيه.

- النجدة! ألا يسمعني أحد؟

يقترب مني السبع.. يزأر.. بغتة تنفتح تحت قدمّي طاقة وأسقط منها.. سقوط طويل في الهواء كمن يسقط من طائرة.. ارتطم جسدي بسطح مياة وغاص تحته.. كتمتُ أنفاسي.. صوت موسيقى يتسرب إلى مسامعي.. أعرفه جيدًا.. شاشة تلفاز تحت سطح المياه أراها بوضوح لبرنامج العلم والإيمان للكاتب الراحل مصطفى محمود.. صوت صافرة أشبه بصافرة إنذار الحروب.. أشعر بروحي تُسحب مني.. أخاف الموت هنا وينتهي كل شيء باستيقاظي فاقد العقل.. حوت أزرق يقترب مني في هدوء.. حوت ضخم للغاية.. أحاول أن أسبح لسطح المياة من دون جدوى.. شيء ما يجذبني للأسفل.. شعرت حينها بحبل سميك مربوط في قدميّ يجذبني نحو الأعماق.. صوت عبد الحليم حافظ يغني:

- إني أتنفس تحت الماء.. إني أغرق.. أغرق.. أغرق.

الحوت يقترب ويفتح فمه الكبير.. أصرخ.. يبتلعني.. ينقطع الحبل.. ظلام دامس.. صوت يهمس لي:

- ما ينتظرك في الظلام بشع للغاية.

الطفل في داخلي يصرخ.. أتقلب داخل بطن الحوت.. أرتطم

بحائط لزج.. أتحسسه.. لا أرى أي شيء.. صوت موسيقى عبد الحليم حافظ يتردد:

- بصَّرتُ ونجمتُ كثيرًا لكني لم اقرأ أبدًا فنجانًا يشبه فنجانك

بصَّرتُ ونجمتُ كثيرًا لكني لم أعرف أبدًا أحزانًا تشبه أحزانك..

مقدورك أن تمضي أبدًا في بحر الحب بغير قلوع.. وتكون حياتك

طول العمر كتاب دموع.

جلستُ أُدندن معه.. ضوء يقترب.. مصباح يحمله أحدهم.. يقترب أكثر.. إنه أبي.. اقف.. أهرع إليه وأحتضنه:

- اشتقت إليك يا أبي.

- اخرج إلى النور يا ولدي.

ناولني المصباح الزيتيّ.. الأرض ممتلئة بدماء مختلطة تغوص فيها قدماي.. تعجبتُ.. اختفى والدي.. نظرتُ حولي في كل مكان.. لم أعثر عليه.. مرآة قريبة طولية.. تحركت ناحيتها.. أراني بقميص فضفاض من الصوف الأحمر وبنطال من نفس اللون وفوقهما عباءة عليها بعض العلامات.. دققت

النظر فيها.

صوت أنَّات يتسرب إلى أذني.. شخص ما جالس على الأرض مستندٌ جسده على جدار بطن الحوت عاريًا.. اقتربت منه.. وضعتُ المصباح بالقرب من وجهه.. تعرفت عليه.. إنه مسرور الضبع.. رآني.. جثوتُ على ركبتيّ أمامه.. تحدث بصوت يأكله الألم:

- ليلٌ يغزو الصمت المريع دقائقه المتثاقلة لينشر الألم بين أسرى الزمان.. قمرٌ يتوارى خلف سحب غاضبة منذرة بسيل جارف يأمل في تطهير الخطايا الأرضية من دون كلل.. تلك السحب تبدو ساذجة لمن يفهم نواياها مثلي من البشر.. فالشر لا ينهيه سوى طوفان جارف يودي بحياة الجميع كما حدث في الماضي السحيق.. أما ما هو أدنى فمحال.. محال أن ينتهي الشر والبشر على قيد الحياة.. الشر والبشر.. وجهان لعملة واحدة لا ينفصلان.. يكافحهما الخير بعناء منقطع النظير في حروب متعددة الفصول والجولات على مر التاريخ.. أتخيل الشيطان يملأ ضجيج ضحكاته الساخرة عنان الدنيا ناظرًا إلى السماء:

«الماء لا يقتل الرجس أيَّتها السحب البريئة».

قطرات المطر.. أراها على أحذية الجنود الموكلين بعذابنا في تلك الغرف المظلمة تحت الأرض.. أراها على قدمك

أيها الجندي.. قطرات تلمع تحت الضوء الخافت الخارج من مصباح زيتي يملؤه الكيروسين.. أحذية يغرقها الماء حتى أذنيها ومع ذلك يقف أصحابها مثلك ليمارسوا أبشع طرق التعذيب باسم أعداء الحرب.

قاطعته بعد أن التفتُّ نحو حذائي الجلديّ:

- كيف جئت إلى هنا؟ وما هذا المكان؟

ضحك كثيرًا متوجعًا ثم استكمل حديثه ساخرًا متألمًا:

- أحيانًا كثيرة أشتم رائحة دماء المعذبين وكأنها تصرخ فوق تلك الأحذية على الرغم من حرصكم على تنظيفها بشكل دوري لتبدو في أفضل صورة ممكنة..

هل لي أن أسألك سؤالًا.. هل يمكن للماء أن يغسل الذنوب يا هذا؟

ضحك مرة أخرى ثم بكى.. تساقطت دموعه.. تنهد:

- عذرًا أيها الجندي.. أشعر ببعض الصقيع بما تبقى من خلايا جسدي الحيّة بعد كل هذا العذاب.. ارتعاشات خفيفة أتغلب عليها بالتجاهل.. لا شيء يقتل الألم غير التجاهل.. علاج سحري لكل معذبٍ حائر.. سألني أحد الجنود من زملائك ذات مرة متعجبًا حائرًا:

- كيف تستقبل كل هذا العذاب بتلك الابتسامة؟

- احتسبه عذابًا من أجل الحياة.. الحياة.

تنهد مرة أخرى.

- تلك الحياة أيها الجندي تستحق الكثير من أجل فقط أن تبقى على قيدها.

نظرتُ حولي استكشف ذلك المكان العجيب.. داخل بطن حوت هذا أم غرفة تعذيب في العصور القديمة؟ هل بدأ هيبنوس حلمه الورديّ بمكان كهذا؟ تساءل عقلي متعجبًا.. المكان شبيه بالسجون القديمة التي قرأت عنها في الكتب التاريخيّة.. لم يكن المكان غرفة بالمعنى المتعارف عليه بل إنها غرف متراصة بجوار بعضها البعض من الخشب المقوى في أربع جوانب بدلًا من الحوائط.. تكفي كل منها بالكاد لشخصين جالسين القرفصاء ولا مجال للوقوف.. لم يكن مسرور الوحيد هنا.. المكان ممتلىء بالأسرى في تلك الغرف الصغيرة.. عرايا مكبلين كحيوانات معذبة.. رائحة العفن تملأ المكان وأوساخ تلطخ أجسادهم كلية.. كأنهم والعفن أخلّاء.

ربث على كتفه وجلستُ في جواره:

- هل تسمح لي بالجلوس في جوارك قليلًا؟

نظر لي متعجبًا:

- إنك أول من يستأذن في ذلك المكان.

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ أن بدأ العذاب.

- هل تتذكر اسمك؟

- اسمي هو أوخوس.

- أوخوس!

- نعم، سمَّاني أبي على اسم فرعون مصر السابق شاهنشاه.. أوخوس.

- حسنًا.. حسنًا.. استمع لي جيدًا.. لا بد أن تخرج من هنا.

- أخرج؟ لقد أوشك الجنود على تنفيذ حكم إعدامي.. لا تسخر مني.. أنتم فقط تستلذون بعذابنا لفترة ثم تنفذون الحكم كلٌّ على حدة.. أخبرني هيا أنني قد أصبتُ الدور لأُعدم.

- لا.. ستهرب وسأساعدك على الهرب.

- هل أنت حقيقيّ أم وهم من وحي خيالي؟

- سترى إن كنت حقيقيًا أم لا.

اعتدل في جلسته واقترب مني في اهتمام بالغ.. كل ما فكرتُ فيه للحظات أن موت ذلك الرجل سيعيده مستيقظًا في المعمل غائب العقل ولا يؤمن وجوده مع أجسادنا النائمة هناك أبدًا.. غير أن موته الآن يفسد خطتنا.. سألته:

- ما تهمتك؟

- ليس هناك تهمة.. أنا هنا أسير.

- أتعرف موطنك الأصلي؟

- نعم.. مدينة على حدود بلاد فارس.

- حسنًا.. هيا فلتنهض معي.

بحثت في جيوب ردائي عن مفاتيح تلك القيود المكبل بها وبالفعل صدق حدسي وعثرت عليها.. حررته.. نهض واقفًا معتدلًا.. ناولته عباءتي ليضعها فوق جسده العاري..

اصطحبته وأنا لا اعرف كيف سأخرج به من ذلك المكان.. أصوات بعض الجنود يقتربون..

كتمنا أنفاسنا.. حوائط حجرية والدماء المختلطة تحت أرجلنا.. همس مسرور:

- هذه دماؤنا أيها الجندي.

نهرته:

- صه! أطفأت المصباح.. مر الجنود في جوارنا ولم يشعروا بنا.. تحسستُ المكان الذي نقف عنده.

تخبطت يداي في سلم حديديّ.. همست له:

- اتبعني.

صعدنا درجات السلم لأعلى.. طاقة خشبية علوية.. فتحتها.. صعدت وساعدته على الصعود.. تفحصتُ المكان..مشاعل معلقة على الحائط.. غرفة فارغة متهالكة الجدران وكأننا داخل قلعة قديمة.. قاعة كبيرة مستطيلة.. حوائط سوداء ملطخة بالدماء.. في المنتصف منصة كبيرة خشبية يبدو أنها كانت قاعة لمحكمة.. أعمدة رخامية كبيرة غير مكتملة وحلقات حديدية ضخمة مثبت فيها سلاسل فارغة.. ترجلنا قليلًا في حذر مستكشفين المكان..

صوت يهمس في أذني:

- لا تنم.. فربما لا تنجو من سجون مدن الأحلام.. ذلك هو الكابوس بعينه.

خرجنا من الغرفة في حذر.. ترجلنا فوق سلالم رخاميَّة قليلة نحو الأسفل.. وقف مسرور ناظرًا للخلف.. سقطت

دموعه.. همس:

- لم أتخيل أنني سأغادر هذا المكان إلا جثة هامدة.

باب خشبيّ ضخم يحرسه بعض الجنود.. صوت عذب يتسلل إليّ.. عزف فردي لآلة الكمان الوترية للحن يملؤه البهجة.. أعلم أن ذلك العازف غير حقيقي وربما أنا فقط من أراه.. طريق مجاور للباب خالٍ من الجنود المرابطين في الخارج.. ركضنا كطيور نجحت في الفرار من محبسها الأبدي.. باب صغير يتراءى لي.. تسللنا ناحيته.. لا أحد في الخارج.. خرجنا.. ساحة رملية كبيرة مرتفعة والأسوار حولها لا تحجب الرؤية.. شمس تملأ السماء.. نظرت إليها بعيون مفتوحة.. أعلام كبيرة تُرفرف فوق القلعة.. أعلام إمبراطورية الروم القديمة.. ركضنا من دون أن ننظر وراءنا.. صوت هائل يجتاح ذلك السكون حولنا.. غبار بعيد يقترب.. صوت جيوش تصيح جنودها.. نظرنا ناحية الأفق.. رأينا جيوشًا تهاجم تلك القلعة فوق جيادهم حاملين سيوفهم ودروعهم.. صرخ الرجل:

- هذه الجيوش لبلاد فارس.. سينتقمون لأسرنا.. ما زالت الحروب دائرة.

رآنا بعض الجنود وناولنا أحدهم سيفين مهللين:

- خذوا أماكنكما ودافعا عن قلعتكما.

وقفنا ممسكين بالسيفين مذهولين.. الجيش يقترب والجنود تأخذ أماكنها حول القلعة.. الرجل يقف عاري الجسد وفوقه فقط العباءة التي سترته بها.. فجأة تظهر عربة تجرها الخيول مسرعة في اتجاهنا.. نظرت على قائدها.. لمحت وسن واقفة بحماس شديد تضرب بسياطها الخيول.. صرخت فينا:

- اركبوا بسرعة فأنا أعرف الطريق.

قفزنا فوق العربة وانطلقت بنا قبل أن يلتحم الجيش بالجنود.. دارت وراءنا معركة طاحنة تنبىء بموت جميع من فيها.. ابتعدنا بالكاد.. تنهدتُ ملتقطًا أنفاسي:

- نجونا.

-٧-

غربـــال مـــــــن نار

فوق العربة النحاسية المنطلقة في الصحراء نام دكتور مسرور الضبع فاختفى من جوارنا.. راودني القلق الشديد فهدأتني وسن:

- لا تقلق.. قلت لك إن الحالمين ينامون داخل الحلم الورديّ وينتقلون في رؤياهم الخياليَّة ولا يعرفون أنهم يحلمون.

- حلم ورديّ! أي حلم ورديّ هذا في عصر الحروب بين الفرس والروم وسجن دمويّ داخل قلعة كهذه؟

- مؤكد أن هؤلاء المطاردين لهيبنوس قد غيروا الحلمِ إلى كابوس.

- كيف سنعثر عليه إذًا وهم يفعلون ذلك؟

- لديَّ يقين أننا سننجح.. ثم لا تنس أننا داخل الحلم الورديّ بوجهة نظر الخمس شخصيات أصحاب التجارب المعملية السابقة، وأن مسرور دكتور تاريخ مجذوب فمن الطبيعي أن يكون التاريخ القديم جزءًا من كوابيسه.

- نعم.. لقد أوشك أسد جائع على التهامي في بداية الحلم

الورديّ السخيف.

- هذا مؤكد من وجهة نظر الكلب.

قالتها وضحكنا في هيستريا مخترقين الصحراء.. قاطعتْ ضحكاتنا:

- كيف جئتِ لهذا المكان في هذا التوقيت؟

- ولجتُ إلى الحلم الورديّ على تلك العربة في اتجاهك.. يبدو أن هذا دوري هنا.. إنقاذك.

فجأة عاد مسرور في جواري.. ظهر بغتة واستيقظ.. همست وسن ضاحكة:

- لقد نام في حلمه الآخر.

نظر إلينا مسرور متعجبًا متساءلا:

- من أنتم؟

كتمت ضحكتي وجاوبته:

- نحن أنقذناك من حكم الإعدام والأسر يا أوخوس.

- بالحق فعلتما ذلك؟ ماهذه الجسارة! لن أنسى لكما هذا المعروف أبدًا.. هل تعرفان الطريق؟

- نعم، لا تقلق.

قالتها وسن.. تنهد مسرور.. اعتدل في جلسته.. ابتسم:

- ما زلتُ على قيد الحياة.. خبر رائع.

نظر نحونا.. ساد بعض الصمت بدا فيها يفكر ثم تحدث إلينا من القلب كأننا أصدقاء فرقتنا الأيام وتلاقينا صدفة:

- أشعر معكما بالراحة النفسيّة فلذلك سأقص لكما حكايتي لنتسلى فالطريق طويل.

تنهد مجددًا ولم ينتظر إجابة منا.. انطلق في حكايته:

- الوحدة شعورٌ قاتل للأحلام.. للحاضر والمستقبل.. لم تكن وحدتي وعزلتي بالمعنى الدارج لدى الناس.. أوخوس.. رجل نشأ يتيمًا.. تزوجتُ وأنجبتُ طفلًا يزيد من آلام ضميري يومًا بعد يوم.. في هذه المدينة القاسية التي عشتُ فيها على أطراف الجزيرة العربية بالقرب من تخوم الشام.. كنت هناك خارج حدود الزمن والعالم أجمع قبل الوقوع في الأسر.. منعنا الحاكم الفارسي للمدينة بإيعاز من كسرى من التجارة مع جيراننا.. بل إنه يقتل كل من يقترب نحو مدينتنا بقوافله التجارية على الرغم من أن المدينة كانت مركزًا هامًا للتجارة فيما سبق.. وكأن كسرى يستغل ذلك كورقة ضغط رغبةً في مصالح سياسية خاصة بالعلاقات مع القوى العظمى.. حتى أدرك الجميع أن مدينتي .. تلك البؤرة ملعونة لا يخرج منها

إلا جثث القتلى لتأكل منها الطيور الجارحة، ولا تفوح منها إلا رائحة الموت والعذاب.. كنا نعمل بالزراعة وجمع المحاصيل في مخازن الحاكم ثم يعود هو ليوزع بعضها علينا.

اغتصب الحاكم عرشه من النبيل السابق بقتله وتعليق رأسه على أبواب المدينة.

يقول البعض بأنه كان خادمًا مخلصًا للنبيل السابق، بل كان خَصيّا له يرعى شئون قصره بعدما سباه في أحد الحروب الدائرة بالقرب من حدودنا، وما إن استولى على حكم المدينة حتى باركه كسرى وتمكن من مصالحة الأعداء بسلامٍ زائف.. هناك شائعة تؤكد أن ربما صلة قرابة بينه وبين كسرى وإن كان الناس لا يصدقونها؛ فإن كسرى لو أراد قتل الحاكم السابق بنفسه لفعل من دون تردد.

كل شيء هناك بقدر.. الطعام والشراب والزواج حتى الأطفال لا يستطيع أي من سكان المدينة أن ينجب أكثر من طفل واحد وإلا ذُبح أمام ناظريه.. هذه أوامر الحاكم ولا تُردّ مهما حدث..لا يستطيع أحد منهم الاعتراض أو حتى مجرد التفكير في عصيانه.

مدينة الجحيم هكذا أطلق عليها حيث لا نهاية لعذاب أهلها.

أوخوس.. الرجل الطائع وزوجته (برجيس) الجميلة الساحرة.. كنا نسكن في وسط المدينة في بيت من الطين المحروق كجميع بيوت تلك المدينة العالية فوق سفح الجبل وبعيدًا عن قصر الحاكم الكائن فوق قمة الجبل مسيرة نصف يوم.. كنا نراه يناطح السحاب بالسماء.

عملي كان داعيًا للسخرية.

نظرنا لبعضنا البعض متعجبين.. آمل أن يُنهي قصته بشرح طريقة ما للعثور على هيبنوس.. وإلا فليكف عن تلك الثرثرة.. أشارت لي وسن بالهدوء والصبر.. استكمل قصته:

- عمل عجيب للغاية ربما لم يُوجد في العالم أجمع إلا في هذه المدينة.. فقد استحدث الحاكم تلك المهنة بين الشعب المكون من عدة قبائل وهي مهنة سريّة يباشر عملها العسس السريّ.. دورنا هو نشر السخرية والنكات بين القوم وبعضهم حتى تشتعل الكراهية بينهم.. لطالما كنت سببًا مباشرًا لصراعات مستمرة ودماء تسفك بين أهالي البلدة الواحدة ولا قانون يحاسب المخطئ منهم.. فالقتل عندنا مشاعٌ لا عقوبة له على الإطلاق.

دعاة سخرية.. يا له من عمل عجيب وغريب!

لم أتمكن من رفض ذلك وإلا عُلقت رقبتي أنا وزوجتي

وطفلي على أبواب المدينة كغيرنا ممن فكروا في الرفض.. مهمتي مراقبة البيوت وأسرارها وتأليف النكات على أي موقف أراه مناسبًا للسخرية ونشره بين القبائل وبعضها البعض.. ماتت ضمائرنا رويدًا رويدًا وتكسرت روابط المحبة بين الجميع وبات الحقد والغل هما سيدا الموقف.

سنين مضت على هذه الحال ومن سيئ إلى أسوأ.

آباؤنا تحاكوا عن تلك الحروب التي انقطعت أخبارها وأزماتها منذ تولي الحاكم الجديد حكم البلاد على الرغم أن زماننا هو زمن الحروب والصراعات في كل العالم.

العاقل يدرك بأن ثمة علاقة ما بين الحاكم وأعدائنا الروم وكأنه واحد منهم، وذلك يفسر كل ما يمر بنا من شقاق وفرقة.. حُكم علينا بالخراب من دون حرب.. الناس يتجرعون الفقر والذل.. فما الحاجة إذًا للحرب وقد احتلونا بالفعل حكمًا ودهاء.

قالها مرارًا وتكرارًا وكأنه يبرر لنفسه ما يشارك فيه من آثام وشرور.. إنه يتقمص تلك الشخصية بنجاح مذهل وكأنه ذلك الشخص المدعو أوخوس حقًا.. استكمل:

- لا حرية مع فقر البطون.. ولا تحرير لعقول تتجرع الخوف كل ليلة.

يومًا ما رأى الحاكم منامًا أفزعه كثيرًا وطلب معبر الرؤى ليخبره بمعنى ما رآه بليلته..

هرع معبر القصر ووقف بين يديه يستمع إلى رؤياه..

(رأى غربالًا من نار لا يمر شيء خلاله إلا واحترق عن آخره..

ورأى أناسًا يمرون ويحترقون تبلغ صرخاتهم عنان السماء..

وكان الحاكم جالسًا على عرشه يشاهدهم ويحتسى كوبًا من الخمر هادئًا مبتسمًا..

حتى جذبته قوة خفيّة لم يدرك مصدرها ناحية الغربال..

حاول بكل طاقته أن يقاومها من دون جدوى.. وأصبح بينه وبين الغربال

مقدار ذراع واحدة وحينها استيقظ من نومه).

سأل معبِّر القصر: هل لديك تفسير لذلك؟

برقت عيناه قبل أن ينطق بتفسيره للحاكم.. وأردف مستفسرًا:

- هل ميزت عدد هؤلاء الناس الذين مروا واحترقوا في ذلك الغربال يا مولاي؟

- نعم.. أربعون رجلًا.

لم يتخيل الحاكم أن تفسير المعبر سيحيل أيامه إلى جحيم لا يُضاهى.. فقد زاد المرض عليه أضعافًا مضاعفة في أيامٍ معدودة وأصبح كالهشيم تذروه الرياح.

مضت سبع ليال قضاها من دون نوم وحيدًا عليلًا في غرفته فهو لم يتزوج لكونه خَصيًا.

وفي صباح اليوم الثامن خرج منادٍ في سوق المدينة وعبر دروبها يصيح على حمار ومعه طبلة يدق عليها بعصاه:

- يا قوم.. إن الحاكم يُعلن رغبته في التنازل عن الحكم..

فاسمعوا وعُوا.. عليكم بانتخاب خمسة أفراد من أفضلكم.. تشاوروا فيما بينكم..

خمسة فقط يواجهون الحاكم بعد عشرة أيام في باحة القصر فوق الجبل.. واحد منهم

سيفوز بحكم البلاد.. يا قوم.. اسمعوا وعُوا.. إن الحاكم يرغب في التنازل عن الحكم.

كررها كثيرًا حتى سمعها القاصي والداني.. عمَّ الفرح جموع الناس ولأول مرة نحّوا صراعاتهم جانبًا وقاموا بانتخاب خمسة من بينهم يشهد لهم بالأفضلية كنتُ أنا

(أوخوس) من بينهم.

ترددتُ كثيرًا في قبول ذلك الترشيح؛ فأنا أعلم في قرارة نفسي أنني لا أستحقه ولكنني اعتبرتها فرصة أُكفر فيها عن خطاياي تجاه قومي.. احتضنتُ ابني (غالبا) وسالت الدموع من عينيّ.. السماء تعطيني فرصة جديدة للتطهر من ذنوبي.. أعلم أن لهذا الكون صاحب ينظر إليّ غاضبًا من خطايا متراكمة أرتكبها، واليوم يمنحني فرصة للاعتذار.

جاء اليوم الموعود وكل أهالي المدينة يحلمون بالحكم والثراء.. وأنا أحلم بالعدل والحرية..

دقت طبول الحاكم بعدما نُصبت المنصة عاليًا وارتص عليها المرشحون الخمسة، ووقف أهالي المدينة بأكملها ينتظرون.

نشب خلاف قوي بين الحاكم وأبناء أخيه حول قراره بالتنازل عن الحكم لأحد الرعيّة وهم أولى بذلك.. تشبث برأيه وقراره في غضب عارم.. وصل لطرد أكبرهم من القصر.

ظهر الحاكم فوق جواده واقترب شاردًا زائغ العينين وصعد المنصة في خطوات ثابتة وسط هتافات قومه في حماس شديد على غير العادة..

تفرس في وجوههم الواحد تلو الآخر ثم رفع يده ليكفوا

عن الهتاف وتحدث:

- أيها الناس لقد جمعتكم اليوم لتشهدوا تنصيب حاكمكم الجديد..

حاكم من بينكم اخترتموه بأنفسكم.. واحد من هؤلاء سيصير كبيركم..

ولكن عليه اجتياز اختبارات وضعتها.. من سيفوز بها فاز بالسلطة ومن

يفشل يُعدم في الحال.

ساد الصمت المطبق للحظات.. وغرق المختارون في بحر من الحيرة والتردد..

- ما بالكم؟ أتريدون التراجع؟

قالها الحاكم في دهاء شديد.. كنتُ بين هؤلاء الخمسة متشبثًا بفرصتي.

- كلا.. سنخوض التجربة حتى نهايتها.

قلتها قاطعًا صمتهم وأردف الباقون بعدي يؤكدون على قراري:

- نعم.. نحن أهل لها.

- نعم.. نعم.

هلل القوم عاليًا مرة أخرى وقطع الحاكم هتافاتهم بإشارة من يده.

- فلنبدأ.. الاختبار الأول.

دُقَّت الطبول بإيقاع سريع.

- أريد منكم اثنين فقط، ولكن لتعلموا أن واحدًا منهما عليه مبارزة الآخر حتى الموت، فمن ينجو سيجتاز الاختبار.

نظرنا إلى بعضنا وقررت في قرارة نفسي بأنني لن أهدر دمًا ما بقي من عمري.. وليكفِ ما تحملته مهنتي داعيًا للسخرية من خطايا.

تقدم اثنان منا خطوتين للأمام.. وافقا على المبارزة.. ألقى إليهما الحاكم بسيفين وبدأت المباراة في توتر شديد.. كانا كثورين يتناطحان وكل منهما يدرك بأن الموت يقترب بين لحظة وغيرها.. حتى دب أحدهما السيف في قلب الآخر.. هلل القوم للفائز وسط فرحة عارمة..

قطع الحاكم تهليلاتهم مرة أخرى مشيرًا إلى الفائز في الاختبار الأول:

- اهدأوا.. فلتقف أنت في هذا الجانب.

أشار ناحية اليسار.. ثم نظر ناحية الثلاثة الباقين ومنهم أنا أوخوس، وأردف يحدثنا بعدما أحضر بعض حراسه مائدة من الطعام عليها ثلاثة أطباق من العسل ووضعوها أمامنا.

- الاختبار الثاني لكم أنتم الثلاثة..

لنفترض أن نجاة شعبكم من الحروب والشرور تتعلق بمخاطرة ستقومون بها.. هذه الأطباق الثلاثة من العسل بينها واحد فقط يمتزج السم به.. هل تقدمون على المخاطرة أم تبتعدون؟ علمًا أن ابتعادكم سيضر شعبكم لا محالة.. إما أن تنجو أنت وشعبك.. وإما أن تنجو بمفردك ويخسر شعبك.. أسمعوني اختياركم.

مدَّ كل منا يده مترددًا وأكلنا ثلاثة الأطباق، وما إن انتهينا والترقب يحلق فوق رؤوس الجميع حتى سقط أحدنا يحتضر من أثر السم، ونجوت أنا ورفيق آخر.. أردف الحاكم حينها:

- الآن لدينا مُنتصرٌ بالاختبار الأول.. واثنان نجيا من الاختبار الثاني..

الاختبار الثالث.. تعلمون أنني خصيّ، فهل بينكم من يصبح مثلي ليقود تلك

المدينة كما حكمتها لعقود طويلة؟

في طرفة عين خلع أحدهم بنطاله وأمسك سكينًا من فوق الطاولة وجرح به خصيتيه وسط ذهولهم جميعًا..

بينما وقفت ثابتًا لا أتحرك..

اقترب مني الحاكم متفرسًا:

- وأنت ألا تريد حكم البلاد؟

- لا ينبغي للمرء أن يضحي برجولته من أجل سلطة زائلة.

- ولكنك كنت على وشك التضحية بحياتك.

- نعم، من أجل الناس وليس من أجلي.

- ما اسمك؟

- أوخوس.. أوخوس يا مولاي.

التفت حينها الحاكم إلى الناس وصاح بصوت جهوري:

- أيها الناس لقد حكمتكم بإذن من الأعداء الروم طوال فترة ملكي.. وبموافقة كسرى.. لأن هذه المدينة خارج سيطرته.. فكان الاتفاق أن تكون له السيادة الشكلية فقط ولكن الحكم للروم.. كانوا يريدونكم فقراء متصارعين.. يشيع القتل بينكم من دون رادع..

تقتاتون على السرقة وقطع الطريق.. تلك كانت أوامرهم

حتى أحافظ على كرسي الحكم.. واليوم أريد أن أتطهر بين أياديكم جميعًا.. نعم كنت مذنبًا.. بل مجرمًا أستحق العقاب.. ولعل أول طريق التوبة هو ترك ذلك العرش البغيض لرجل يستحق فربما يُصلح ما أفسدته لعقود طويلة.. أما الرجل الفائز بالاختبار الأول فهو خاسر؛ فمن يبني ملكه على قتل الغير لا يستحق الحياة.. وأما من فقد رجولته بيده، فسيسلمكم للأعداء في أول ليلة لجلوسه على العرش.. ولذلك حكمت عليهما بالإعدام هنا في هذه الساحة.. لم يتبقَ سوى أوخوس.. ذلك الرجل الذي رفض الاختبار الأول.. رفض قتل غيره من أجل السلطة.. وخاطر بحياته في الاختبار الثاني من أجل شعبه.. وامتنع عن التضحية برجولته من أجل الحكم.. إن حاكمكم الجديد هو أوخوس أنصِّبه بيدي اليوم على عرش البلاد.

هلل الجميع في فرحة واقترب الحاكم مني وهو يربت على كتفي والدموع في عينيه وأردف هامسًا:

- اعمل جيدًا ألا ينتهي بك المطاف في غربال من نار.

ابتعد الحاكم بعدما وضع رداءه فوق أكتافي، وألبسني تاجه الذهبي، واختفى بين جموع الناس وكلمات معبِّر رؤيته تتردد في أذنيه لا تفارقه أبدًا.

- بقي لك يا مولاي في الدنيا أربعون ليلة.. أربعون ليلة

وبعدها سيكون مصيرك الجحيم.. حيث النيران التي لا تُحتمل.

ما إن ابتعد الحاكم حتى حدث ما لم يكن في الحسبان.. جاء (غالبا) طفلي صاحب التسع سنوات يجري هلعًا تجاهي.. تعجبتُ كثيرًا فقد تركته مع أمه التي آثرت البقاء في المنزل لشكها في أنني لن أعود وسيعدمني الحاكم لا محالة.. فلن يُمنح الحكم لفقير مثلي.. صرخ الطفل:

- أبي! أبي! حرقوا أمي! حرقوا أمي!

احتضنته واستمعتُ إلى أصعب ما يمكن لمرء أن يتحمله:

- أبناء أخي الحاكم ضاجعوا أمي ثم حرقوها في المنزل!

امتلأت نفسي بالغضب.. استللتُ سيفًا وانطلقتُ أركض ناحية البيت ولكنهم كانوا أسرع مني..

أحدهم هجم على الحاكم السابق وذبحه أمام الجميع وساد الهرج والمرج وسط ساحة القصر.. وأخذت الجنود تضرب الناس بالسياط وهم يركضون ويقعون فوق بعضهم..

حتى ظهر الابن الأكبر لأخي الحاكم فوق جواده وسط الباحة يصيح:

- أنا الحاكم الجديد أيها الشعب الذليل! أنا الحاكم.

لحظات فارقة بين الحياة والموت ركضتُ فيها نحو ابني (غالبا) وسط الخراب، ودفعته أمامي فوق جواد قريب وانطلقت به بعيدًا في براعة هاربًا من تلك المدينة الظالمة.. ومن بلدٍ إلى أخرى أبحث عن الأمان حتى وشى بي أحدهم فسقطتُ في الأسر بعد أن أرسلتُ (غالبا) إلى مكان آمن مع صديق قديم يعمل بالتجارة.. والآن.. هل تعرفون إلى أين سنذهب حقًا؟

نظر مسرور في جواره فلم يجد أحد.. غلبنا النوم أنا ووسن من طول حكايته.. نمنا فاختفينا.. كان بمفرده في العربة وسط الصحراء.

-٨-

العـــــم سيجانـــــوس

- أبي! أبي! حرقوا أمي! حرقوا أمي!

ما زال صوت مسرور الضبع وحكايته يتردد في أذنيَّ كأنني جالس في جواره على الرغم من اختفائي.. صوت آخر يتسلل.. موسيقى أوبرالية تتعالى.. فتحتُ عينيّ.. نظرتُ حولي.. كنتُ في غرفتي الفوضويّة ممددًا على الأرض وسط رسوماتي المتناثرة.. حولي عدد من العازفين ممسكين بآلاتهم الموسيقية ويعزفون لحنًا متسارعًا أشبة بموسيقى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن.. لديّ جميع أعمال بيتهوفن الموسيقية ولطالما جلستُ أستمع إليها خاصة داخل عزلتي الأخيرة.. فرقة موسيقية يرتدي أعضاؤها زيًا رومانيًا قديمًا.. كأنهم جنودٌ في الجيش الروماني.. أحدهم يغني لغةً لا أفهمها.. المشهد بالكامل سريالي لا يُفهم.. بالتأكيد أنا داخل الحلم الورديّ.. أين وسن؟

بحثت حولي عنها ولم أعثر لها على أثر.. لفت انتباهي علامة زهرة الخشخاش المرسومة على باب الغرفة الخشبي.. اقتربت منها وسط موسيقاهم المتعالية.. تحسستُ الباب.. رسمة حديثة.. مددتُ يدي لأفتحه بحذر.. صوت نميم

جرذان ينضم لصوت المطرب الأوبرالي.. بل يتعالى عليه.. انفتح الباب.. برقت عيناي.. عدد لا حصر له من الجرذان تملأ البيت بأكمله.. جميعها تصدر نميمها وتنظر تجاهي لا تتحرك.. عيونهم مرعبة.. انتابني رعب شديد.. نظرتُ ناحية غرفة ابنتي ورد.. لم أفكر كثيرًا.. تحركت في اتجاهها مخترقًا زحامها.. ترتعش قدماي بين أجسادها الثابتة وعيونها التي لا تحيد عني كأني هدفها الوحيد.. فتحتُ باب غرفة ابنتي ورد.. ظهرت ورد هيكلًا عظميًا على فراشها وأمي في جوارها كذلك.. هيكلان عظميان تتلاعب بهما الجرذان.. صرخت كمن خُلع قلبه.. ضوء الشمس يملأ الغرفة.. لقد فتحوا الستائر.. قذائف من النيران تخترق الغرفة كُسرت معها النوافذ الزجاجية بالكامل.. وابل من الرصاص حاولت تفاديه والاختباء خلف الفراش.. سقطت دموعي.. صرخت:

- إنه كابوس.. كابوس.. اهدأ يا عيسى.. اهدأ.

عدد من الملثمين يقتحمون البيت.. أراهم من الباب المفتوح.. يدهسون الجرذان التّي بدورها ركضت في فوضى عارمة في كل اتجاه.. جسدي تهاجمه جرذان متوحشة.. همستُ لنفسي:

- نَمْ يا عيسى.. نَمْ قبل أن يقتلوك.. النوم حقٌ مكفول لكل حالم.

أغمضتُ عينيّ.. أسنان كالسكاكين تنهش في جسدي.. أحاول تجاهل ذلك الألم.. صوت الرصاص يتزايد.. المقطوعة السيمفونية تتعالى.. أُدندن أغنيتي المفضلة:

- مقدورك أن تبقي مسجونًا بين الماء وبين النار..

فبرغم جميع حرائقه.. وبرغم جميع سوابقه.. وبرغم الحزن الساكن فينا

ليل نهار.. وبرغم الريح وبرغم الجو الماطر والإعصار.. الحب سيبقى يا ولدي..

الحب سيبقى يا ولدي.. أحلى الأقدار.

تغلبت على الألم.. نمت.. نجوت من خطر ذلك الكابوس.. اختفيت.

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

صوت عبد الحليم يغني ويتسلل إلى مسامعي.

فتحتُ عينيّ.. أجلس داخل مركب صغير يتمايل فوق مياة النيل.. في جواري وسن تنظر لي بحب شديد.. عدد كبير من المراكب حولنا في كل مركب اثنان.. سكون لا يعكره شيء.. رائحة ورود تهاجم رئتيّ.. استرخاء مباغت يسيطر على جسدي وروحي.

- حبيبها.. لست وحدك حبيبها.. حبيبها أنا قبلك وربما جئت بعدك وربما كنت مثلك.

حبيبها.. حبيبها.

- أين نحن؟

- في جنة العُشاق داخل الحلم الورديّ.. أين كنت أنت؟ لقد تأخرت.

- الحلم الورديّ!

قلتها ساخرًا.

- يبدو أننا سنُفقد هنا للأبد.

- لا تيأس بهذه السرعة.

- من حلم إلى كابوس إلى هلاوس وهيبنوس لم يظهر بعد.

- سيظهر.. ستراه طالما تبحث عنه.

- سنرى.

- هل لنا أن نستغل ذلك الجزء الهادىء من الحلم إن كنت لا تمانع؟

تلك النظرة في عينيها ألجمتني.. استلقت في جواري.. نظرت إلى السماء.. استلقيث في جوارها.. نظرتُ إلى النجوم

المتناثرة.. أمسكت بيدي.. احتضنتها بيدها.. ملث إليها.. قبلتها.. ربما استغرقت قبلتها أعوامًا طويلة لا ندري طولها.. بين شفتيها جنة لطالما بحثثُ عنها.. عانقتني بكلتا ذراعيها.. غبنا في سكرة العشق.. أغمضنا أعيننا مستمتعين.

فتحت عينيّ.. كنت بمفردي على شاطىء البحر والأمواج متلاطمة على صخور قريبة.. رجل يجلس في جواري يصطاد.. إنه مسرور الضبع.. حلم جديد.. ابتسمت متفحصًا المكان من حولي.. لاحظ مسرور استيقاظي.. ابتسم مربتًا على كتفي:

- يبدو أن رحلتك كانت طويلة يا سيد سيجانوس.

- سيجانوس! تبًا لذلك!

همستُ لنفسي.. ما هذا الاسم القديم! أما زال مسرور يعتقد أنه ذلك المدعو أوخوس؟ لو أنني أملك الاختيار لأخبرته أنه يحلم وأنه في الحقيقة يُدعى مسرور الضبع الطبيب المجذوب، ولكن خوفي على ضياعنا هنا للأبد ألجم لساني.. اللعنة على هيبنوس! إلى متى سنظل تائهين هكذا بين الأحلام المتداخلة؟ تنهدت.. أغمضتُ عينيّ.. ثرثرة مسرور المتوقعة لا تُحتمل.. سأنام.. ينظر لي بابتسامة سخيفة.. مضى بعض الوقت.

لم أنم.. لم يتغير الحلم.. عليّ بتحمله بعض الوقت.. أين وسن؟ نظرت حولي ولم أعثر لها على أي أثر.. تساءلت: أي مصيبة يحملها ذلك الحلم؟.. تنهدتُ.. بدأ مسرور يثرثر ناظرًا نحو الأفق تاركًا شباكه:

-آاااااه.. أربعة أعوام مضت منذ الفرار من بلاد الغربان تاركًا إياهم يسيطرون على مبتغاهم في بلاد فارس، جزء من امبراطورية الظلم والجور والبهتان.. آه يا سيجانوس.. فرار جبري على جواد أصهب اخترقتُ به الصحراء تائهًا لا أعرف الدروب.. حيرة قاتلة.. إلى أين أذهب؟ إلى بلاد الأعداء.. الروم؟ أم أتيه في الأرض التي لا أعرف عنها شيئًا؟ أنا حتى لا أملك القرار فلا دراية لي بطرق السفر بين البلاد المتناثرة في الصحراء.. هاجمني وابني (غالبا) العطش والجوع فأخذنا نأكل من أعشاب الأرض المتفرقة ونبحث عن مصدر للمياه فلا نجد.. في رمال الصحراء الساخنة وتحت الشمس الحارقة تيقن أوخوس بالهلاك.. لم يتحمل ابني وغاب عن الوعي.. حملته يائسًا فوق ظهري بعدما دفنتُ الجواد الذي مات عطشًا بعد أيام.. حتى سقطت أنا الآخر.. جثتان محتملتان فوق رمال متوهجة.

لكن للقدر رأي آخر.. قافلة من بلاد الروم تعود راجعة بعد تبادل تجاري مشروط مع بلاد الشام.. تُنقذني أنا وابني.. تمر

الشهور كعمر جديد تغير فيه كل شيء.. أوخوس تغير اسمه إلى ماركوس.. فُتحت لي أبواب الجنة الأرضيّة.. فبقائي في بيت ذلك التاجر صاحب هذه القافلة الكريم الطيب وضعني بين علية القوم في روما الذين لم أتخيل يومًا أن أكون بينهم.. تعامل معي الجميع على أنني أحد أقرباء التاجر الروميّ.. ساعدني من دون مقابل.. ذلك التاجر يُدعى (سيجانوس).. أنت يا مُنقذي العزيز.. أما زلت لا تتذكر؟ أنت من الحرس البريتوري سابقًا وحاليًا من الأثرياء.. دمث الخلق.. لقد فقدت ذاكرتك منذ أيام بعد حادثة وقوعك من فوق جوادك.. لا تخف.. سأبقى في جوارك.. ربما قصتي تحفز ذاكرتك لتعود كما كنت.

- سيجانوس! اسم جميل يا أوخوس.

- ماركوس.. لا أحد هنا يعلم اسم أوخوس غيرك.. ألا تتذكر؟ عندما خرجتُ على رأس قافلة لك وتعرف عليّ أحد الرجال الفارسيين في القافلة التي تتاجر معها ودار بين القافلتين صراع مسلح بسببي.. لقد وضع الحاكم الجديد في مدينتي القديمة مكافأة لمن يسلمني حيًا له.. ليعدمني على رؤوس الاشهاد في نفس الساحة التي أُعلنت فيها حاكمًا للبلاد.. أسروني وتغلبوا على رجال قافلتك وفي طريق العودة هاجمتهم فرقة من الجيش الروميّ وأسرونا.. ولولا

عناية القدر لما تمكنتُ من الفرار من قلعتهم وعذابهم والعودة إلى هنا.. حينما عدتُ اعترفت لك بكل شيء.. هدأتني وطالبتني بكتمان ذلك مدى الحياة.. واتخذتني خليلًا ورفيقًا واهتممت لأمر ابني غالبا.. ألم تتذكر بعد؟

اشرتُ له بالنفي والملل يؤرقني.. تعجبتُ كونه لا يتذكر أنني قد أنقذته من ذلك الأسر.. يبدو أنه يحلم أحلامًا منفصلة متصلة بنفس القصة.. نفس الشخصية التي اختارها له عقله الباطن.. نهض مسرور أو أوخوس أو ماركوس وترجل ناحية الشاطىء صامتًا يفكر.. أغمضتُ عينيَّ أملًا في النوم والدخول في حلم آخر.. لقد سئمتُ ذلك الرجل.. ألا يوجد غيره في الحلم الوديّ؟ أين الأربعة الآخرون؟ صوته يهاجمني.. فتحتُ عينيّ:

- سأحكي لك شيئًا آخر.

ابتسمتُ منافقًا له.. أكمل ثرثرته:

- لقد عشت في بيتك مُكرمًا.. مرت الأيام على استحياء تشبه بعضها حتى قابلتها.. تلك الحسناء الساحرة.. في حفل على شرف التاجر الرومي سيجانوس.. هنا في بيتك المطل على بحر الروم.. تلك الروميّة الفاتنة.. (فستال)

فستال تلك الرقيقة.. صاحبة العينين السوداوين.. ليل

تهب نسائمه بمجرد النظر فيهما.. أحببتها.. وأحبتني.. وغرقنا في بحور العشق السرمديّ.. الابنة الوحيدة لكبير الحرس البريتوري السابق للإمبراطور الروماني شخصيًا.. وحيدة بعد موته.. تزوجتني ضاربة بعرض الحائط أي سؤال عن الماضي.. تزوجتني لأنها عشقتني وتمنت العيش ما تبقى من عمرها في جواري.. لقد كنت شاهدًا على قصة حبنا..

عطفت على ابني.. غالبا.. صارت له الأم بعد فقدان برجيس.. وفي غمضة عين تعين ماركوس (أوخوس سابقًا) جنديًا في الحرس البريتوري إرضاءً لزوجته الجميلة ابنة كبيرهم الراحل وإرضاءً أيضًا لصديقي الوحيد سيجانوس.. أنت يا حبيبي.. مرت أربع سنوات كحلم لم ينغصه شيء.. ألم تتذكر بعد؟

امتلأت عيناه بالدموع.. احتضنني..

- لا تخف.. لن أتركك أبدًا.

ترجلتُ معه في شوارع روما القديمة مبهورًا.. لقد برع هيبنوس في بناء ذلك العالم كالحقيقة تمامًا. كما رأيتها في رسومات القدماء وبين سطور كتب التاريخ بل وأكثر دقة من الأفلام السينمائية التي صُنعت عن تلك الحقبة الزمنية.. تملأ أسراب الرَّاجلة وركَّابُ المركبات الشوارعَ .. حرفيون.. نجارون.. ممثلون جائلون.. متنبئون.. فلاسفة مشردون. هكذا

أخبرني أوخوس.

موسيقى احتفالية مبهجة في الدروب والطرقات..

- اليوم هو عيد القيصر أغسطس.. تمتلئ الدروب بالناس من شتى الطبقات.. أغنياء فوق عربات تجرها الخيول وفقراء ينتظرون الفتات والهبات من الإله وحاشيته.. الفقراء بنوعيهما.. فقراء المدن والقرى.. أولئك المنبوذين من الطبقة الحاكمة المكونة من القيصر ومجلس شيوخه والكهنة والجنود البريتوريين وخاصة بعد ثورة سبارتاكوس التي تم القضاء عليها في صقلية.

توقفنا أمام مبنى فخم.. همس أوخوس:

- معبد أغسطس الكبير.. هيا بدأت مراسم الاحتفال بعيده.. في حضور الأطربون العسكري و البريتور وكل أعضاء السينات.

مكان أشبه بالمسرح يتوسط المعبد.. مدرجات من الرخام في شكل دائري وفي أسفل المنتصف باحة كبيرة ترابية تمتلئ بالجنود وبعض من الشعب الروماني.

صوت يُعلن حضور أغسطس فوق موكب ضخم يستقبله رجال أشار أوخوس ناحيتهم وعرفهم بأنهم رجال السينات.. نسيتُ مَلَلِي من أوخوس ووقفت أتابع شغوفًا:

- مولانا أغسطس يطل علينا!

فوق رأسه تاج من ذهب يتبختر في رداء مبهر من الياقوت والمرجان..

دُقت الطبول وبدأت الفرقة الموسيقية عزفها.. انخرط الناس في غناء كورالي جماعي.

جلس أغسطس في عرشه الذهبي بالقرب من تمثال ضخم يشبهه في مقدمة المسرح داخل باحة المعبد وأشار بيده فبدأ الاحتفال على أوجه.. تصارع رجلان من العبيد مفتولا العضلات عريانان إلا من غطائين على عوراتهما.. صراع دامٍ قديم قرأت عنه أحبه الجميع في ذلك العصر ينتهي بموت أحدهما وانتصار الآخر، ثم بعد ذلك يتصارع الناجي مع أسد فتَّاك خلف أسوار حديدية تحجزهما عن الحضور، والنتيجة معروفة مسبقًا يموت الرجل وسط تهليلات الناس فرحين بالعرض الشيق.. يفترسه الأسد الجائع ليومين أمام عيونهم وجبة ساخنة.

بدأت بعده عروض الرقص من نساء غانيات تتلألأ أجسادهن شبه العارية تحت بريق الشمس المتمايلة مع الموسيقى الراقصة.

يُسكب عليهن الخمر.

على أحد الجوانب جلسنا فوق سلم رخامي بعد أن رأى أوخوس طفلًا يبلغ من العمر عشر سنوات.. اقتربنا منه.. همس لي:

- إنه ابني غالبا.

جلسنا في جواره.. ابتسمتُ.. إنه الطفل خالد عدس الذي حُكم عليه بالسجن في قضية القتل الخطأ.. إنه جزء من حلم مسرور الضبع.. تبًا لهذا العالم العجيب الذي صنعه هيبنوس.. بحثت يائسًا في وجوه الناس حولي.. أكل هؤلاء نائمون؟ جميعهم يحلمون ولا يدركون ذلك.. تتابع العرض المذهل ونسيتُ لجماله سبب وجودي هنا.. بغتة ساد الهرج والمرج.. انقلبت الدنيا رأسًا على عقب في طرفة عين.. بينما أنقل عينيّ بين أوخوس وابنه غالبا وبين العرض الرائع، قفز أحد الجنود البريتوريين نحو الصف الأول واستل سيفه وذبح أحد رجال السينات.. بُهت أوخوس هامسًا مضطربًا:

- ذلك المذبوح هو العضو المسئول أنا عن تأمينه.

ساد الهرج والمرج وركض الناس في كل مكان فزعين.. هرع الجنود لحماية القيصر وفي ثوانٍ معدودة غادر المكان.. تسارع الناس بشكل عجيب.. كأنني داخل فيلم تلف شريطه من حولي.. وقفتُ مذهولًا.. الدموع تملأ عيون ذلك الطفل

في جواري والناس حولنا يبدون كطيور تتسارع.. لم نتحرك من معبد أغسطس..

تحت نفس الشمس نُصبت منصة الإعدام في الباحة.. وكأن ساعات طويلة قد مرت في لحظات متتالية.. صوت رجلين يتهامسان بالقرب مني:

- أُثبت أن قاتل عضو مجلس السينات ما هو إلا أحد عبيد قصره تخفَّى في زيّ أحد جنوده.

- قبضوا عليه وحكموا عليه وعلى كل العبيد في القصر بالإعدام.. القانون الرومانيّ ينص على ذلك.. لو ارتكب أحد العبيد جرمًا يُحاكم عليه جميع عبيد المجني عليه.. بالإضافة إلى إعدام بعض الجنود البريتوريين المتساهلين في تأمين المقتول.

برقت عيناي.. امتلأ المسرح بالناس والشعب يتابع تنفيذ حكم الإعدام الجماعي.. رأيت أوخوس فوق المنصة مكبلًا وسط المحكوم عليهم بالاعدام.. اللعنة على ذلك.. لا ينبغي أن يموت.. محال! سيفسد كل شيء.. أين وسن؟ أين هيبنوس؟ أشعر بأنني أغرق في دوامات مفترسة لا ترحم أبدًا.. الويل لنا جميعًا!

اقتربت امرأة ساحرة الجمال إلى جوار الابن الصغير غالبا..

احتضنته:

- أمي فستال.

- أما زلت تصر على حضور تلك اللحظات؟

- إنها اللحظات الأخيرة في حياة أبيه.. لن أتركه وحده.

علق عينيه بعينيّ أوخوس الذي لم يبعد نظره عنه طيلة النطق بمرسوم الحكم على العامة.. الصلب حتى الموت لأكثر من مائة رجل وامرأة وعشرة أطفال.. مائة مستيقظ بلا عقل.. هذا ما فكرت فيه.. يبدو أن الحلم الورديّ قد بات كابوسًا يهدد عقول النائمين.. لا نجاة إن مات جميع الحالمين واستيقظوا غائبي العقل.. عليّ بفعل أي شيء لإنقاذهم.. أين أنت يا هيبنوس؟

نُصبت الصلبان ودُقت المسامير الصلبة في أيادي المصلوبين وأرجلهم.. لن أستطيع فعل أي شيء الآن.. أشعر بعجز كامل.. امتلأت عيناي بالدموع والغيظ المكتوم.. وددتُ لو أقفز ناحيته وأُقاتل كل هؤلاء الجنود لأُنقذه من بين أياديهم ولكن محال.. سيكون مصيري الموت في الحال ومن ثم الاستيقاظ فاقد العقل وفشل المهمة.. تمالكت أعصابي.. لقد فقدنا أخطر الخاضعين للتجربة.. سيستيقظ مع أجسادنا النائمة في المعمل السريّ وربما يقتلنا.. رأسي يكاد ينفجر من

الأفكار المتصارعة.. قطعوا بخناجر حادة شرايين الأقدام وتركوهم يعانون الموت البطيء.. وسط بكاء وعويل الناس.. ونداءات تندد بالظلم.. مات أوخوس.. مات ماركوس.. مات العقل الباطن لمسرور الضبع.

همس ماركوس بآخر ما نطق به قبل أن يغادر الدنيا.. تمنى لو يستمع له غالبا:

- اهرب يا بني من مدن الغربان.

انطلق العامة في شوارع روما في هذه اللحظة يهللون ويصرخون كمن ذُبح لتوه.. بركان اندلع في غير موعده.. أعمال شغب طالت الأسواق والمحال والبيوت.. حمل الشعب الحجارة وقذفوا بها الجنود بل ومشاعل النيران ليحرقوا من يقف في طريقهم.

هرعتُ إلى الطفل (خالد عدس) المتقمص دور غالبا بن أوخوس في هذا الحلم لعلني أنقذه من الموت.. واحدٌ فاقدٌ للعقل خير من اثنين.. احتضنته.. صرخت فيه لأُوقف دموعه:

- لا تخف.. لن أتركك.

كانت الجميلة فستال معنا.. تحركنا بين الحشود المتصارعة.. نيران حولنا في كل مكان..

انطلقت قوات من الجيش الروماني تطوف الشوارع وتلقي القبض على من تطاله أياديهم.. معهم الجنود البريتوريين يضربون الناس بالسياط.. فوضى عارمة.. موتى في كل مكان.. كابوس مزعج.. عند تمثال أغسطس الضخم في مدخل الميدان الكبير المؤدي للمعبد... رأيث علمًا كبيرًا يرفرف.. لونه أحمر وفي منتصفة رُسمت زهرة الخشخاش.. توقفت وسط الخراب.. أين وسن؟ لا بد أن لهذا معنى.. صرخت:

- أين أنت يا هيبنوس؟

ثبُت الناس كأنهم أصنام حجرية.. ساد الصمت من حولي.. كأننا لوحة رائعة برع رسام عالمي في رسمها عن تلك الحقبة التاريخية.. لكنني في داخلها أتحرك.. أتنفس.. أبحث عن صانع تلك اللوحات.. عن الرسام.. عن هيبنوس.

ساد الظلام.. استمع إلى صوت دقات قلبي يتعالى.. صوت يهمس:

- ما ينتظرك في الظلام بشع للغاية.

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

ضوء يسبر أغوار ذلك الظلام.. رجل يحمل مصباحًا زيتيّ في يده.. يقترب.. تعرفت عليه.. إنه ماهر سعفان.. أحد

الخاضعين للتجربة معنا.. من نرى الحلم الورديّ بوجهة نظرهم.. اقترب مني مبتسمًا وهمس لي:

- أما زلت تبحث عن هيبنوس؟

- هل تعرف مكانه؟

- أنت فقط من تعرف.

- أنا؟

- أنت فقط من تستطيع العثور عليه.

- كيف؟

- ما تراه ليس قصة مملة.. ما تراه ليس كابوسهم بل كابوسك أنت.

- لا أفهم شيئًا.

- لن تفهم الآن.. عليك متابعة القصة.

- أي قصة؟

- كابوس الحلم الورديّ.

- فسر ما تقول يا...

- من هذه اللحظة أنا سيجانوس الروميّ.. العم سيجانوس.

ضحكت.. لم أتمكن من كتم ضحكاتي.. ابتسم ماهر وربت على كتفي في سخرية:

- الأحزان دائمًا تتخفى وراء الضحك.. انظر حولك إن كنت تريد الرؤية.. إن كنت تريد الحقيقة.

انطفأ المصباح.. ساد الظلام للحظات.. أشعل بعدها ماهر مشعلًا معلقًا على الحائط في بيت حوائطه من خشب.. صوت هدير الأمواج يخترق ذلك السكون حولنا.. يُشعل باقي المشاعل على الحائط الواحد تلو الآخر.. مقعد من خوص متشابك.. كنتُ جالسًا عليه وهو يتحدث بصوت رخيم هادىء:

- أظلمت الدنيا في عيني الغلام الصغير.. غالبا.. باتت أيامه رتيبة على وتيرة واحدة من الحزن والصمت.. سنوات من التيه قضاها في بيت الروميّة.. فستال.. من كانت له أمًا حنونًا.. ورث كتب أبيه.. لقد كان أبوه كثير الاطلاع ولا يترك كتابًا إلا اشتراه، خاصة في الفترة التي عاش فيها هنا في روما.. مكث غالبا أيامًا وشهورًا لا يخرج من مكتبه الخشبي الضئيل وسط كتبه.. قرأ في كل شيء.. الأدب والتاريخ والفلسفة.. وجد مخطوطة يبدو أنها بخط والده الراحل.. على غلافها كتب.. يوميات أوخوس.. قضى لياليه في قصة حياة والده.. في كل ما عاناه في الماضي القريب والبعيد..

تجول معه في شوارع بلاد فارس ومدينته القديمة التي ترعرع فيها طفلًا.. رأى بين السطور أمه الحقيقية وقسوة نهايتها اغتصابًا وحرقًا..

تلك المرآة فستال التي شارفت على منتصف الثلاثينات كانت فاتنة حقًا.. جسدها الممشوق البضّ الأبيض كان محط أنظار الكثيرين مما تقربوا منها ورغبوا في الزواج ولكنها صدَّت الجميع.. حتى أنا.. الصديق المقرب من ماركوس (سيجانوس) بعد أن عادت لي الذاكرة.. عرضتُ عليها الزواج وعلى الرغم من رفضها فإن اهتمامي الشديد بغالبا لم يُنتقص.. لم أتخل عنه وظللت محافظًا على زيارته والحديث معه وكأنني أقوم معه بدور الأب الراحل وإن كان لا أحد يعوضه.

سقط غالبا في حب فستال.. لم يستطع المقاومة.. سهام عشقها أصابت رجولته في مقتل كلما رآها ونظر إلى عينيها أو تلصص إلى ثنايا جسدها.. قاوم ذلك مرارًا وتكرارًا ولكن جمالها سلبه كل هروب ممكن.

ذات ليلة وهي تعد له الطعام وتحكي له عن يومها.. لم يبعد نظره عن نهديها المكشوف نصفيهما تحت ردائها الضيق حتى لاحظت هي ذلك لأول مرة.. نظرت له نظرة ذات مغزى.. لم يتحمل.. هجم عليها وقبّلها.. اعتصر شفتيها.. امتص رحيقها

الأخاذ.. لم يشعر بنفسه إلا وهما جسدان متصلان تغرقهما الشهوة ويتصارعان في حلبة الغرام فوق أرض من شبق.

أيام بعدها مرت حاول كل منهما تجنب الآخر.. كأنهما يكفران عن فعلتهما الشنيعة.. حتى تملكته الشهوة واحتضنها مرة أخرى وهي ترتب غرفته مُعلنًا هزيمته أمام جيوش الواجب والحكمة:

- أحبك.

- ما حدث بيننا غير..

قاطعها...

- نتزوج.

- ماذا؟

- نتزوج.

- أتتزوج أمك؟

- أنتِ لست أمي.. أمي ماتت محروقة منذ زمن.

نظرت في عينيه القويتين.. جرفها الشوق إليه.. فقد شب حبه في قلبها منذ سنوات.. تقاوم وتخفي ذلك ولم تدر أن رسول الحب سيصل بينها وبين قلب ذلك الغلام

الذي يصغرها بخمسة عشر سنة.. قبّلته قبلة لا نهاية لها.. لا تتعجب لقد حكى لي غالبا ذلك بنفسه.. أنا العم الولهان أتخلى عن حبي من أجل غالبا ابن صديقي.

مرت الأيام والجنة ثالثهما.. عشرون عامًا مضت وحياته مستقرة بشكل مذهل.. يترقى في المناصب حتى صار أهم الجنود البريتوريين في صحبة الإمبراطور طيباريوس.. وقائد مرتقب للفرقة البريتورية في الجيش الروماني.. ما كان ينقصه حقًا هو الذريّة.. لم تنجح فستال في إنجاب أي طفل له.. فشلت ثلاثة مرات فيما سبق وأنجبت ثلاث ذكور موتى بلا حياة.. وكأن حبل الخلاص يخنقهم في بطنها قبل خروجهم إلى الدنيا.. حتى امتلأت نفسه باليأس.

أصرت أن تزوجه بغيرها ولكنه رفض بشكل قاطع.. حبُّها بالنسبة إليه أغلى من أي شيء آخر حتى وإن كان طفلًا يحمل إسمه.

ظللتُ الداعم الأول لـ غالبا حتى بعد زواجه ممن أحبها وعشقها وتمنى قربها.. ربما لأنني أردتُ أن أبقى في حياتها بأي شكل من الأشكال حتى وإن كنتُ مربيًا لزوجها.. علّمته ركوب الخيل.. اصطحبته إلى الأسواق والمدن المجاورة.. تعلّم على يدي عدة لغات.. علمته اللغة العربية تلك اللغة العجيبة التي يتحدث بها العرب في بلاد الشام وتخومها.

العم سيجانوس ذلك الرجل المتنقل بين البلاد كرحالة يكتشف العالم.. وما كان يعيدني إلى روما غير ذلك الغلام (غالبا) وتلك المرأة الجميلة (فستال) التي لم أنلها يومًا.. كانت التجارة في الأحذية هي مصدر ثروتي.. إسكافي أصنع الأحذية ثم أرسلها في قوافل ورحلات بحرية إلى بلاد أخرى فأجني أموالًا طائلة.. عرفني الناس باسم سيجانوس الإسكافي..

تنهدتُ متعجبًا.. للتو لاحظت أنني لم أنم منذ فترة داخل ذلك الحلم التاريخي.. سحقًا لهذه الثرثرة التي ورثها ماهر من مسرور.. ورثها سيجانوس من أوخوس.. اللعنة على ذلك الحلم الورديّ.. ما زال ماهر المتقمص لشخصية سيجانوس يثرثر:

- تعلم مني غالبا تلك الصنعة.. صناعة الأحذية.

انغمس غالبا في عمله ليباشر تدريب الجنود البريتوريين الجدد بنفسه وتأمين مواكب الإمبراطور طيباريوس، بينما كنتُ أسافر بالشهور على رؤوس قوافلي التجارية.

ظل الحلم يراوده بطفل من صلبه.. فستال شارفت بداية الستينيات من العمر وما زالت تحتفظ بجمالها الآخاذ وكأنها بنت العشرين.. ولكن محال أن تحمل في أحشائها طفلًا وهي في هذه السن، فمن يماثلها يقترب على عمر الشيخوخة

والموت، حتى حدث ما لا يتخيله عقل!

اقترب مني سيجانوس والدموع تملأ عينيه.. جلس في جواري.. أكمل قصته الطويلة:

- ذات ليلة وقف غالبا حزينًا يتابع أمواج البحر الثائرة بالقرب من هذا المنزل الأبيض وستائر غرفته تتطاير.. ظهرت فستال منها كالقمر تتوسط سماء عقله.. ابتسمت وتحركت في اتجاهه.. احتضنته من الخلف وهمست في أذنه بأحلى ما سمع في عمره:

- أنا أحمل في أحشائي طفلًا لك من جديد.

التف لها غير مصدق ما سمعه للتو.. اغرورقت عينيه بالدموع واحتضنها من غير أية كلمة.. والخوف يملؤه.. لماذا يُمنح الفرصة ثم يقتلها القدر؟ هل ستنجح هذه المرة في ولادة طفلٍ حي إلى هذه الدنيا؟

مرت الأيام وزاد حجم بطنها كالمعتاد.. كل يوم يمر بالكاد يحمل معه الأمل والرجاء..

اقتربت لحظة الولادة في توتر شديد.. بات غالبا يتوقع قدوم مولوده في أية لحظة.. ولكن حبيبته فستال لم يأتها ألم المخاض حتى الآن.. يقضي لياليه سهرًا بالقرب منها بينما تغط هي في نوم عميق وحينما تفتح عينيها تجده يحملق

في وجهها فتقبّله وتحتضنه ثم تخلد إلى النوم من جديد.

ليلة عاصفة.. الرياح تكاد تقتلع البيت من مكانه.. أصوات الأمواج المتلاطمة على الصخور القريبة يشعره بالقلق الشديد.. دقات على باب البيت في هذه الساعة المتأخرة..

تعجبت.. صوت دقات على الباب.. اختفى ماهر من جواري.. كان صوت الرياح عاليًا للغاية.. كنتُ بمفردي وسط ذلك البيت.. دقات الباب مستمرة.. يظهر رجل في الأربعين تقريبًا من عمره.. إنه حجاج منصور العامل المحكوم عليه بالسجن في قضية السرقة.. أحد الخاضعين لتجارب هيبنوس.. لا يراني.. يفتح الباب.. يرى أمامه ماهر في شخصية سيجانوس وقد أغرقه المطر خارج الباب.. احتضنه.. دخل سيجانوس للبيت وهو ينظر لي ويراني ولكن حجاج لا يراني.. تحدث سيجانوس كأنه يريد اسماعي:

- اشتقت إليك يا غالبا.

- مضى أكثر من عام يا عمي لم أرك فيه لترحالك الدائم.

حسنًا هذا هو غالبا.. حجاج يتقمص دور غالبا وماهر يتقمص دور سيجانوس.. سيجانوس بعد أن عادت له ذاكرته.. وهذا هو الحلم الورديّ.. أغمضتُ عينيّ محاولًا النوم من دون جدوى.. تنهدتُ.. مجبرٌ أنا على الاستماع لحكاية

قبل النوم تلك التي لا تنتهي.. تحدَّثا:

- غالبا.. أغلق الباب وتعال.

خلع سيجانوس معطفه في توتر شديد.. اقترب منه غالبا متعجبًا:

- ما الأمر يا عمي؟ أراك مضطربًا للغاية.

- اجلس.

كان يحمل بين يديه مخطوطًا من مجموعة أوراق من البردي يكسوها التراب بعض الشيء و يحاوطها حبل سميك يربطها.. جلس محتضنًا تلك المخطوطة.. برقت عيناي.. غلاف تلك المخطوطة عليه علامة زهرة الخشخاش.. انتبهت.. جمعت شتات تركيزي لحديثهما:

- ليس لدي وقت.. اسمعني جيدًا.

- خيرًا!

- ستأخذ هذه المخطوطة وتخرج من روما نهائيًا إلى رجل في بلاد الحجاز.. راهب بالقرب من مكة.. ستسلمه هذه المخطوطة في حذر شديد.

- ما هذه المخطوطة؟ ولماذا لم تقم أنت بذلك؟ أو أي أحد من معارفك.

- ربما لن أعيش حتى تلك اللحظة.

- ماذا يحدث يا عمي؟

- سأخبرك بكل شيء.

- كلي آذان مصغية.

- في رحلة من رحلاتي إلى بلاد الشام.. أهداني أحدهم ذلك الكتاب على سبيل الهدية وأخبرني أنه قديم قدم الأزل وأطلق عليه كتاب هيبنوس.. لا يُعرف مؤلفه أبدًا.. كتاب عجيب يُكتب فيه كل شهر صفحة جديدة لم تكن موجودة كأنه يستشرف المستقبل.. في البداية أخذت القصة بأكملها على محمل الهزل ولكنني وجدت أن ما يُكتب كل شهر يتحقق لي.. أحداث لا يمكن لأحد أن يعرفها أقرؤها قبل حدوثها وتحدث كما هي.

- لا أؤمن بتلك الأساطير يا عمي.

- استمع لي جيدًا.. لم يعد هناك وقت لهذا الجدال.. هذا الكتاب يحتوي على سحر مروِّع ولا بد من إبطاله، وبعد كثير من البحث والتنقيب عرفت أن هناك راهبًا مكيًّا مشهورًا بإبطال تلك الأسحار مهما كان صعوبتها.. فلتذهب به أنت إلى الراهب المكيّ الذي سأخبرك بمكانه..

- ولماذا لم تذهب به أنت؟

- لأنني سأموت يا غالبا.

- ماذا؟

- الكتاب يقول ذلك..

تنهد محتضنًا إياه وسقطت دموعه.. ساد بينهما الصمت.. مسح دموعه هامسًا:

- هناك شيء آخر آن الأوان كي تعرفه..

- أي شيء؟

- النبوءة.

- نبوءة!

- ذات يوم ووالدك في أسره ووسط الظلام ظهر له شيخ عجوز.. لم يُدرك من أين أتى ولا أين اختفى.. هذا الشيخ أخبره سر عن حياته القادمة..

- أي سر؟ انطق يا عمي.

- ستموت مصلوبًا يا بني وسيأتي من يرعى ابنك بعدك، ولكنه سيموت حرقًا وسيهرب ابنك حتى يولد له اثنان أحدهما يختطفه الشيطان وبعد زمان وزمان سيقتتلان..

أي الفردين سينتصر؟ من يغزو مدن الأحلام.. وعلامة ذلك الخلود في شمس بلا غياب.

لم يعر اهتمامًا يذكر وقتها وأعاد ذلك لنوبات التعذيب الشديدة التي تعرض لها.. اعتقد أنها هلاوس لا أهمية لها.. وخرج أبوك وجاء إلى هنا وعاش، وذات مرة حكى لي ذلك على سبيل الدردشة.. ضحكنا ونسينا.. لكن عندما مات أبوك مصلوبًا أمام عينيّ فأصابتني الدهشة.. تذكرتُ حديثه عن نبوءة الرجل العجوز.. ربما صدفة وتناسيت.. مرت الأيام.. وأُهديتُ ذلك الكتاب العجيب.. حاولت التخلص منه ولكن مع كل مرة أقذفه فيها إلى البحر أرجع وأجده فوق طاولتي وكأنه مُرسل لي خصيصًا.. ومنذ أقل من شهر وجدت باقي تلك النبوءة مكتوبة في داخله..

«ستموت حرقًا وسيهرب من رعيته حتى يولد له اثنان أحدهما يختطفه الشيطان وبعد زمان وزمان سيقتتلان.. أي الفردين سينتصر؟ من يغزو مدن الأحلام.. وعلامة ذلك الخلود في شمس بلا غياب».

صدقت في تلك النبوءة.. لم يعد عندي مجالٌ للشك في أنني سأموت.. ولكن قبل ذلك كان عليّ أن أُنقذك.. عليك بأخذ ذلك الكتاب الملعون والذهاب به إلى الراهب المكيّ لربما تنجو أنت وأولادك المنتظرون.

- عمي.. لقد توهمت كل هذا.. أرجوك اهدأ.. لا يمكن لأحد أن يستشرف مستقبله.. هذا دجل واضح.

- ليس دجلًا.. أنا منذ تلك اللحظة التي أُهديتُ فيها ذلك الكتاب العجيب وأنا أعيش في نهار بلا ليل.. منذ ذلك الوقت وأنا لا أنام ولا أرغب أصلًا في النوم.

أمسك غالبا الكتاب مبرق العينين.. كنتُ واقفًا أُتابع حديثهما بكل تركيز.. كتاب سحري يجعل من يملكه لا ينام.. هل هذه القصة حقيقية أم مجرد كابوس داخل الحلم الورديّ الملعون؟ تداخلت القصص داخل رأسي.. لم أعد فاهمًا لأي شيء.. لماذا يُركز الحلم الورديّ على قصة ذلك الرجل أوخوس وابنه غالبا وصديقه سيجانوس وما يحدث لهم على الرغم من موت مسرور الضبع واستيقاظه خارج الحلم؟ وإن افترضنا أن تلك هي رؤيته الخاصة للحلم الورديّ، لماذا لا تنتهي بخروجه من دائرة الحلم؟ أين أنتِ يا وسن؟ أحتاج إليك حقًا لتفسري لي ما أعايشه.. صوت حوافر خيول تهاجم المكان.. لحظات وكانت قوات الجيش البريتوري تقتحم البيت.. أحدهم يصرخ:

- اقبضوا على الجاسوس غالبا.. جاسوس الفرس في بلادنا.

حينها فهمتُ السبب المنطقي لهجومهم على بيت غالبا.. أصوله القديمة الفارسية التي أخفاها أوخوس طوال حياته..

هناك من وشى به.. للحظة أدركت أن هؤلاء المهاجمين ربما يكونون من المطاردين لهيبنوس في الأساس.. أحدهم أسقط مصباحًا كيروسينيًا كان بالقرب منا.. فاشتعل سيجانوس مبتسمًا مستسلمًا.. رأيته بأم عينيّ تلتهمه النيران.. لم أستطع إسعافه هو الآخر.. الآن استيقظ اثنان بلا عقل في المعمل السريّ.. مسرور الضبع وماهر سعفان.. يالحماقتي وفشلي! صوته يتردد في أذنيّ بتلك النبوءة العجيبة من دون توقف:

- ستموت مصلوبًا يا بني وسيأتي من يرعى ابنك بعدك ولكنه سيموت حرقًا وسيهرب ابنك حتى يولد له اثنان أحدهما يختطفه الشيطان وبعد زمان وزمان سيقتتلان.. أي الفردين سينتصر؟ من يغزو مدن الأحلام.. وعلامة ذلك الخلود في شمس بلا غياب.

هرع غالبا إلى غرفة زوجته وسط النيران وحملها.. قفز بها من شرفة البيت وامتطى جواد السيد سيجانوس وابتعد مخلفًا وراءه جحيمًا لا يطاق.. ومعه ما سيغير حياته للأبد.. كتاب هيبنوس. . النار تتزايد من حولي.. حاولت القفز وراءه.. لم أستطع.. الارتفاع شاهق.. النيران تتزايد من حولي.. أنا المقصود إذًا.. ربما سأموت حرقًا أنا الآخر.. أغمضتُ عيني.. باغتني النوم.. اختفيت.

غـــالب بن أوخـــوس

فتحتُ عينيّ.. الشمس تتوسط السماء على استحياء.. أنظر إليها بعيون مفتوحة.. كنتُ فوق مركب وسط البحر.. تبتعد المدينة على مدى البصر.. بعض العمال يتحدثون ولا يرونني.. أُلاحظ شيئًا غريبًا.. لماذا لا يراني بعض الناس داخل تلك الأحلام المتعددة ويراني غيرهم؟ تنهدتُ معللًا.. لا قواعد لعالم الأحلام أبدًا.. فوق ذلك المركب المتأرجح فوق مياه مضطربة يظهر غالبا وفستال منكمشين في أحد جوانبه.. يتدثران من بردٍ لا يُحتمل تحت سماءٍ مُحتقنة وسحبٍ ركامية تكاد تحجب شمسهما.. أحد العمال يهمس لزميله:

- أين السيد سيجانوس؟

- لدينا أوامر مباشرة بطاعة أوامر السيد غالبا.

- أهذا يعني؟

- لقد مات سيجانوس.. مات كما أخبرنا في رحلته الأخيرة.

تساقطت دموعه.. صمت مطبق اغتال وجوه الجميع وطعن صدورهم الحزينة على سيدهم الطيب.. همس العامل:

- كيف للمرء أن يتوقع موته بهذه السهولة؟

- لا مجال للثرثرة الآن.. تحرك أرجوك.

- أبحروا.

قالها آمرًا العبيد المنتشرين فوق المركب.. استوقفه غالبا:

- انتظر.. أتعرف إلى أين؟

- نعم.. لقد أخبرني سيجانوس أنني سأبحر بك في اتجاه الإسكندرية في حالة موته..

ومن هناك سأساعدك لتصل إلى مكة مرورًا بمدينة بابليون ثم البحر الأريتري.. لا تشغل بالك.

- عجبًا.. ولماذا لم يُرسلك أنت؟

- ماذا تقصد؟

- لا شيء.

صمت برهة قبل أن يسأل:

- هل لنا أن نستريح قليلًا؟

- تفضل في استراحة السيد سيجانوس.

انطلق المركب البحريّ مخترقًا مياه بحر الروم مبتعدًا عن

روما ليخلف وراءهما خراب داميًا..

سيبحث عنهم الروم في كل مكان بل وسيخرج جنودهم لينبشوا الثرى أملًا في العثور عليهما..

أما آن لذلك الكابوس أن ينتهي؟ همست لنفسي.. اقتربت من تلك الغرفة المفتوحة نافذتها.. رأيت فستال تجلس في حضن غالبا.. لم يرياني.

- اختيار جيد أن نفر إلى مكة.. تلك الأرض البعيدة عن سيطرة الروم.

همس بها غالبا.. غرفة صغيرة في منتصف المركب.. صورة زيتية للعم سيجانوس معلقة على الحائط.. لماهر سعفان بالأحرى.. اقترب منها غالبا.. كم كان هذا الرجل نقيًا!

ربتت فستال على كتف غالبا عندما لاحت دمعة تفر من عينيه.

كتب كثيرة متناثرة هنا وهناك يتجمع أغلبها فوق مكتب خشبي صغير ومجموعة من أوراق البردي.. جدار زجاجي يطل على المركب يغطيه قطعة من اللّباد تكاد تحجبه.. سرير خشبي في جانب الغرفة وتعلوه قطع كثيفة من اللّباد ووسادة.. أرض خشبية باردة.

تصفح غالبا ذلك الكتاب الذي لم يفارقه تلك الليلة.. كتاب هيبنوس.. وكأنه إرثه الثمين من عمه سيجانوس.. قفزتُ من نافذة الغرفة واقتربت منه.. نظرتُ في صفحات ذلك الكتاب.. مكتوب بلغة لا أفهمها.

تنهد غالبا.. تعثر في نظرات حبيبته فستال المضطربة أنفاسها.. لاحظ حينها وجهها المتورم الشاحب فاقترب منها واحتضنها.. سألته وهي في أحضانه:

- هل تخبرني بحق الجحيم ماذا يحدث؟

- كما رأيت.

- مطاردون من الروم! ماذا فعلت لتستحق تلك المطاردة وحرق منزلنا وقتل العم سيجانوس حرقًا؟

لم يجبها.. ابتعد عنها وترجل بعيدًا هربًا منها.. اقتربت منه ونظرت في عينه:

- غالبا حبيبي.. لنعد إلى بلادنا ودعني أحاول أن..

قاطعها:

- لن نعود إلى هناك مرة أخرى.. أرجوكِ يا فستال.. سأخبرك بكل شيء في حينه.. فلتثقي فيّ.

- لم أعهدك هكذا لا تثق في أقرب الناس إليك.

- الأمر يحتاج إلى شرح مطول وأنا مرهق الآن واحتاج إلى الراحة.

- ما هذا الكتاب الذي تتمسك به منذ أن فررنا؟

- فلتستريحي هيا.. أنت أيضًا في حاجة إلى الراحة.

ساعدها على الاستلقاء على الفراش ودثرها بغطاء كثيف وطلب منها النوم متجاهلًا أسئلتها.

مد يده ليتصفح تلك الكتب الملقاة على المكتب.. عثر على علبة صغيرة من الخشب.. فتحها.. وجد بها حروفًا عربية من النحاس.. ابتسم.. همس:

- تلك الصيحة الجديدة التي اخترعتها يا سيجانوس في عالم الأحذية.. حروف لاتينية بأول حرف من أسماء أصحابها توضع على الحذاء.. يبدو أن تلك العلبة الخشبية خاصة بالمنطقة العربية.

كلمات ذلك الرجل تتردد على مسامعي وربما يسمعها غالبا أيضًا.. رجلان في نفس الغرفة فوق مركب في عرض بحر الروم لا يريان بعضهما.. رجلان في حلم واحد يفرقهما كابوس كل منهما.. صوت سيجانوس يتكرر:

- سيأتي من يرعى ابنك بعدك ولكنه سيموت حرقًا

وسيهرب ابنك حتى يولد له اثنان أحدهما يختطفه الشيطان وبعد زمان وزمان سيقتتلان.. أي الفردين سينتصر؟ من يغزو مدن الأحلام.. وعلامة ذلك الخلود في شمس بلا غياب.

خرج غالبا إلى مقدمة المركب البحري وصوت الأمواج المضطربة يرتعش لها قلبه.. يثيره التجاجها.. نظر ناحية الشمس بعيون مفتوحة لأول مرة.. تتبعته ووقفتُ في جواره ونظرتُ معه إلى الشمس.. عجيب ذلك.. عيوننا مبرقة لا تتأثر بوميض الشمس.. همس:

- علامة ذلك.. خلود في شمس بلا غياب.

لاحظتُ طائرًا يُحلق فوق المركب.. نظرتُ عاليًا لأجده غراب أبقع.. انقبض قلبي.. همست له:

- أتكره الغربان؟

لم أنتظر إجابته فهو لا يسمعني أعلم ذلك.. تعالت الأمواج بشراسة.. فجأة ثبُت كل شيء مرة أخرى..

كل شيء ثابت فوق ذلك المركب البحريّ.. وكأنهم تماثيل من الشمع لا تتحرك.. ذلك الغراب الأبقع يقف على حافة المركب.. صوت أغنية أوبرالية تتداخل مع صوت الأمواج.. زوجته فستال في منتصف المركب مستلقية على ظهرها وفاتحة قدميها كصنم نحته صاحبه صارخًا.. الأمواج حولي

كالجبال الراسخة لا تتحرك.. عالية تكاد تغطينا.. العمال ممسكون بشراع المركب وحولهم العبيد في ثبات كلقطة ثابتة في شريط سينمائي.

وقفتُ متعجبًا .. نظرتُ ناحية الشمس مرة أخرى متساءلا:

- سيولد لغالبا توأمان؛ سيختطف الشيطان أحدهما وسيتحاربان بعد أزمنة كثيرة.

المنتصر من يغزو مدن الأحلام؟ مدن الأحلام! أيقصد من ينجح في السيطرة على الأحلام؟

لوهلة قفزت في رأسي فكرة أن هيبنوس هو أحد هذين التوأمين.. نعم.. ذلك التفسير منطقي.. لذلك الحلم الورديّ يحوي تلك القصة الطويلة التي لا طائل منها غير أنها تكون قصة هيبنوس نفسه.. تدفق الأدرينالين على عقلي.. باتت الصورة واضحة بعض الشيء.. هيبنوس شخص غير عادي.. من يخترع تقنية كهذه لا بد له أن يكون خارقًا.. هيبنوس هو أحد التوأمين.. هللت:

- هيبنوس.

نظرتُ ناحية الشمس بعيون مفتوحة.. أراني جالسًا في ركن هادىء في غرفتي الفوضوية أرسم تلك اللوحة.. لوحة زيتية جديدة بعنوان «الخديعة» غالبا في المنتصف في

مركب بحري، والبحر الهائج على الجانبين، وفستال يأتيها المخاض، والبحّار ورجاله يمسكون الشراع، وغراب أبقع يُحلق.. رفعت يدي جانبًا وصحت:

- هيبنوس.. أنا في الطريق إليك.

عاد كل شيء للحركة من جديد.. فستال تصرخ.. وجع المخاض يكاد يفتك بها.. الأمواج تتصارع على المركب والعمال يحاولون الصمود تحت صفعات المياة يمينًا ويسارًا.. يتأرجح المركب في قسوة.. تهطل الأمطار بغزارة شديدة وصوت الرعد يقذف الرعب في قلوبهم.. والبرق يكاد يخطف أبصارهم بين الحين وغيره.. هرع غالبا نحو فستال بالكاد وأمسك بيديها:

- تمسكي يا فستال.. لماذا خرجتِ من غرفتك؟

حاول أن يعيدها إلى غرفة سيجانوس ولكن القدر كان أسرع منه.. سقط العمال في المياه.. ابتلعهم البحر.. وسقط وراءه ما تبقى من العبيد.. بقى غالبا وفستال بمفردهما على ظهر تلك المركب الموشك على الغرق وأنا معهم متمسك بشراع مكسور، وفوقنا ذلك الغراب الكريه الذي لم يكف عن متابعة ذلك المركب صامتًا.

هرع غالبا ناحية الشراع وحاول التمسك به.. حاولتُ

مساعدته.. اصطدم شيء ما بقدميه.. إنها العلبة الخشبية الخاصة بـ سيجانوس.. سقطت محتوياتها بالقرب منه.. في هذه اللحظة أنجبت فستال طفلين.. خرجا من رحمها سريعًا في لحظة توقف فيها العالم في عيني غالبا.. لم أستمع حينها سوى إلى دقات قلب غالبا.. رأيث فرحًا لا مثيل له في عينيه.. إنهما أحياء.. صرخ:

- لقد نجحت فستال هذه المرة في ولادة الأحياء.. لقد نجحتِ يا حبيبتي.

ترك الشراع.. أمسك بحبل سميك وذهب ناحيتهم متأرجحًا.. ربط الحبل في قدم فستال واحتضن الطفلين.. مد يده ليقطع حبل الخلاص:

- تحمَّلي يا حبيبتي.

لمح بالقرب منه حرفين متناثرين.. سين.. وصاد..

- السيد سين.. والسيد صاد.

همس بها ونسل خيط من الحبال السميكة وعلق كل حرف منهما حول رقبة الطفلين.

- انظري يا عزيزتي إلى طفليك.. السيد سين بن غالبا والسيد صاد بن غالبا.

ابتسمت فستال المتشبثة بعمود خشبي في منتصف المركب، ولكن موجة عنيفة اختل معها توازنها وسقطت في المياه وانفرطت عقدة الحبال من قدمها.. لم أترك الشراع وأنا أتابعهما متأثرًا.. أخاف من الموت غرقًا فأتوه عما وصلتُ إليه.. برقت عينا غالبا ولم يدرِ ماذا يفعل.. هرع سريعًا بالطفلين الباكيين نحو غرفة سيجانوس ووضعهما على السرير وربط حبالًا حولهما في طرفه سريعًا.

خرج ليقفز في الماء بعد أن رأى فستال تقاوم الموج بعيدًا.. سبح نحوها.. ضاربًا بيديه موجات القدر الطاغية.. التقطها بالكاد بعدما استسلمت.. نظر ناحية المركب.. لمح ذلك الغراب اللعين ينعق بعلو صوته ويحاول كسر زجاج الغرفة مرتطمًا به بقوة.. حملها واتجه ناحية المركب البحريّ.. صارع الأمواج بقوة وهي فوق كتفيه.. المركب يبتعد.. نجح الغراب الأبقع في كسر الزجاج.. مشهد عجيب.

- النبوءة.

همستُ بها مذهولًا.

ظهر في الأفق نسر أبقع يصارع الهواء بجناحيه مخترقًا الزجاج المكسور.. لحظة واحدة كانت كفيلة بخروجه بأحد الطفلين معلقًا في مخالبه.. عاريًا.. يحمله من ظهره.

وصل غالبا إلى المركب.. ترك فستال وهرع ناحية الغرفة..الطفل المتبقي هو سين.. هكذا هلل بها.

صرخ:

- لقد اختطف الشيطان ابني.

تساءلت:

- ترى هل هيبنوس هو السيد سين؟ أم السيد صاد؟

نظر حوله في كل مكان.. لقد اختفى الكتاب.. كتاب هيبنوس.. حينها ارتطمت بي موجة عارمة.. سحبتني تحت المياة المضطربة.. قاومتُ.. حبل كثيف يُربط بغتة على قدميّ ويسحبني للأسفل.. صوت برنامج العلم والإيمان يتردد.. شاشة تظهر وأنا في طريقي نحو القاع.. أغلقتُ عينيّ.. أحاول النوم قبل الموت.. أنفاسي تُكتم.. أشغل روحي بصوت البرنامج.. أتناسى تلك القوة الطاغية المخترقة لرئتي.. نمتُ.. اختفيت.

-١٠-

مـــــدن الرذيلـــــة

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

فتحت عيني.. صوت موسيقى أجنبية راقصة.. أعرفها جيدًا.. أغاني لفرقة pink floyed .. موسيقى الروك التي أحببتها واستمعت إليها دومًا في الخفاء بعيدًا عن تحكمات أبي ومن بعده زوجتي همس.. تفحصت المكان من حولي.. ساحة كبيرة ممتلئة بالأنوار المتداخلة التي تتلاعب.. على مدى البصر رجال ونساء يتراقصون.. ضحكات يملؤها الغنج والشهوة تتردد في كل مكان.. جال بصري في كل شبر بحثًا عن وسن.. لا أدري لماذا اختفت بغتة من تلك الرحلة الشائكة داخل الحلم الورديّ؟.. غيابها بالنسبة لي في حد ذاته كابوس.. عبق الخمر المعتق يملأ الأرجاء ممتزجًا برائحة عرق الراقصين والراقصات.. البعض غارق في قبلات لا تنتهي والبعض الآخر يوشك أن يمارس الرذيلة دون حياء.. تحركتُ بين زحامهم.

هناك على مقربة مني عثرت على الضلع الثالث في تلك الرحلة.. السيدة وداد الحمراء.. حسنًا.. أنا الآن داخل الحلم الورديّ من وجهة نظرها هي.. طبقًا لرؤيتها.. لافتة كبيرة

لمحتها مكتوب عليها (مرحبًا بكم في مدينة الرذيلة).. اقتربت منها.. احتست كأسها من الخمر وهللت:

- أفلاطون كان كاذبًا.. الفضيلة ليس لها وجود.

لو أنني قابلتُ أفلاطون لأقنعته أن يحول مدينته إلى ملهى ليلي كبير..

يرقص فيه الناس.. يشربون.. يغيبون عن الوعي.. يغيبون عن الحقيقة.

لمحتني فاقتربت مبتسمة..

- أنت؟

- هل تعرفينني؟

- الجميع هنا يعرفك.. أنت فقط الجاهل.

- ماذا تقصدين؟

- لا تبالِ.. أنا داعرة مخمورة.

ضحكت بغنج شديد.. تراقصت حولي.. لامست بجسدها البضّ جسدي.. تحاول إثارة شهوتي.. نظرت في عينيّ.. سألتني:

- يمكنك التذوق إن أحببت.

- تذوق؟

- تذوقي.

ضحكت مجددًا.. وضعت يديها على وجهي.. همست لي:

- أما زلت لا ترى؟

- أرى ماذا؟

- الحقيقة.

- الحقيقة!

التفّت حولي.. ضحكت.. اقتربت من أذني وهمست بصوت أشبه بفحيح أفعى:

- القصة لم تبدأ بعد.

حينها لمحت أمي على مسافة ليست بالقريبة مني.. ارتبكت.. للحظة تخيلت أنها وقعت في مرض النعاس الجبريّ، ثم تذكرت أن الحلم الورديّ موصل بطريقة ما بأحلام وغفوات الناس أجمعين.. ابتسمت.. اقتربت منها تاركًا وداد الحمراء.. تابعتني ضاحكة.. اقتربت أكثر.. برقت عيناي.. تباعد الزحام عن أمي وتركوها في بؤرة واضحة.. رأيتها بوضوح تمارس الرذيلة مع أحدهم.. رجل لا أعرفه.. صرخت غاضبًا:

- أمي!

نظرت تجاهي.. كأنها تبدلت.. عيناها حادتان تُعلنان عن سيدة من أبشع ما يكون.. صوت يهمس لي:

- ما ينتظرك في الظلام بشع للغاية.

أظلم العالم من حولي.. غرقت في ظلام مباغت.. ضوء خافت يقترب.. فتاة تبكي.. الطفل في داخلي يصرخ.. عرائس ودمى تغرقها الدماء تبرق عينيها وتقترب مني.. رأيت ابنتي ورد تنظر لي.. تهمس:

- أبي! استيقظ يا أبي! افتح عينيك!

- أنا في كابوس يا ورد.. اخرجي من هنا.

- لا.. كل ما تراه ليس حقيقيًا.. أنت تلهو وسط الخديعة.. ما ينتظرك في الظلام بشع للغاية.

تختفي ورد.. يصرخ الطفل في داخلي.. تقترب الدمى.. يسود الظلام.. آلام بشعة تجتاح روحي.. أُغمض عينيّ.. أما آن لهذا الكابوس أن ينتهي؟.. الآلام تزداد.. أراني أرسم لوحة وسط غرفتي الفوضويّة.. كأنني انتهيت لتوي من تلك اللوحة الزيتيّة.. تفحصت تفاصيلها..

رجل فوق جمل وطفل نائم يرضع تحت عنزة.. الرجل هو

(غالبا) ما زلت أتذكره جيدًا.. شمس تتوسط السماء الصافية في صحراء شاسعة.. لوحة مكتوب تحتها (التيه)..

صوت يهمس لي:

- أتريد الحقيقة؟

فتحتُ عينيّ.. أراني مصلوبًا على عارضة خشبية عالية وفي جواري وداد الحمراء.. تقف بزي أشبه بعارضات البورنو في الأفلام الأجنبية.. تتلاعب الإضاءة.. عدد لا نهائي من الناس حولنا ينظرون لي.. دماء تتساقط من أفواههم.. عيونهم حادة.. كأنهم تلك الدمى داخلي.. يقتربون ببطء.. جاوبت:

- لا أريد غيرها.

- لن تراها ما دمت ترتدي ذلك السوار.

أخرجت بلطة حادة واقتربت مني.. هوت ببلطتها فوق يدي اليسرى وقطعت معصمي فسقط السوار من يدي ملطخًا بدمائي.. صرخت بكل ما لدي من صوت.. أغمضت عينيّ.. أحاول النوم قبل أن تقتلع رقبتي.. همست:

- فلتكمل القصة كأنك هم.. خذ مقعدك وانتظر دورك وابتعد عن لعب دور المشاهد.

لم أفتح عينيّ.. ظلام كثيف أُلقيتُ فيه.. أدرك أن كل ما سيأتي من تلك الأحلام لن أعرف أنني أحلم.. لقد انتهى دور المخترق.. ربما ضعتُ للأبد.. الألم يزداد.. الوداع.

-١١-

بـــلاد الهـــــون

غرب نهر تيسا شمال القوقاز، تتصدر الشمس الساطعة صدر السماء الصافية.. ورجل وحيد يقف فوق جبل شاهق ناظرًا إليها بعينين مذهولتين.. الرياح تعصف به وتذاؤبها يرج روحه ولكنه راسخٌ كالجبل لا يتزعزع.. طائر ضخم يظهر في الأفق وكأنه يضرب بجناحيه العالم أجمع يأتي من وراء الشمس.. إنه نسر أبقع يحمل ما بين مخالبه طفلًا رضيعًا.. يقترب من الرجل وينظر له في عينيه قبل أن يضع الطفل أمام قدميه ويغادر مختفيًا في الأفق.. ينحني الرجل ويحمل الطفل الصامت.. ينظر له متعجبًا.. كم يعجبه ذلك الوجه البريء!

صوت يناديه قادم من الشمس:

- أتيلا!

ينظر تجاه مصدره.. الشمس.. مشهد يخلع القلوب.. رأى عددًا لا نهائيًّا من الغربان تقترب في تناغم منقطع النظير.. لونها كلون الذهب.. تحمل في مخالبها عرشًا من ذهب يتدلى.. تجلس عليه فتاة شابة.. رداؤها من لؤلؤ ومرجان.. إنها وسن.. تلك التي ما زالت ترتدي السوار حول معصمها.

نعيق الغربان ينشر الرهبة في ثنايا قلبه ولكنه يتظاهر بالثبات..

تضع الغربان عرشها بالقرب منه.. تترجل وسن ناحية الرجل وتمد يدها وتُقبِّل رأس الطفل مبتسمة.. سألها في تعجب:

- من أنتِ؟

- أنا البشرى.

- بشرى!

- بشرى الخلود.

- الخلود!

- سيلد الطير ما يمنحك الخلود ويقودكم إلى حكم العالم.. انظر.

التفت الرجل خلفه نحو ما تشير إليه وسن فرأى شعبه الكبير.. ثلاثة ملايين من البشر على مدى البصر ينحنون له بكلتا أياديهم.. أمطرت السماء دمًا من دون سحب.. فامتلأ النهر بالدم.. نظر إلى وسن مبهوتًا فربتت على كتفه:

- ارتوِ.

هبط الرجل ناحية النهر أسفل الجبل مخترقًا حشود الناس

ولم يتخلَّ عن الطفل بين يديه.. ملأ يده بغرفة من الدماء وشرب.. سمع صوت وسن يتردد في العالم:

- خلودٌ في شمسٍ لا تغيب.

قالتها وهي ترمي سيفًا من ذهب في الهواء.. طار حتى انغرس في الرمال بجوار قدم الرجل.. تحدث آنذاك الطفل الذي لم يكمل يومه الأول في هذه الدنيا:

- أنا ابن الطير.

صوت ينادي:

- مولاي أتيلا.

التفتت له أتيلا.. إنه خادمه.

- هل أحضر لك طعام الغذاء؟

تعجب أتيلا.. التفت أمامه.. اختفى الطفل.. اختفت وسن.. كان بمفرده جالسًا داخل قصره الخشبي البديع في منتصف المدينة الممتلئة بالفاكهة والأشجار.. ناظرًا في بلورته السحريّة.. تلك الكرة الزجاجية التي تميز بها ملوك عصره في بيوتهم، يستعرضون عليها أحلامهم التي لا يتذكرونها كليةً بمجرد وضع راحتي يديه عليها.. حلم واحد متكرر لأكثر من عام.. تساءل: هل جُنَّ الحاكم الطاغية أتيلا؟ أم أن

الخمر تعصف بعقله؟ أتيلا.. زعيم الهون.. من يصفهم الغرب أنهم قومٌ يتحدثون بلغةٍ أشبه بصياح الزرازير وكلامهم أشبه بنقيق الضفادع.

الهون.. من يسبحون في الأنهار عرايا من دون خجل.

اتخذ الهون هذه العاصمة مكانًا مؤقتًا لقيادتهم بسبب ترحالهم المستمر وحروبهم التي لا تتوقف إلا نادرًا.. أكواخ من القصب والخشب يتوسطها قصر خشبي ضخم يسكنه زعيمهم أتيلا وعائلته الكبيرة.. زوجاته وأبناؤه وزوجاتهم.

في ساحة القصر المفروشة بسجاد من اللّباد وبين الحوائط الخشبية المزخرفة، أمسك أتيلا بكأس من القمز ذلك النبيذ المصنوع من حليب الفرس المُخمَّر باعتدال.. شغله كثيرًا تفسير حلمه في بلورته السحرية.. قُدمت له وجبة الغداء من لحوم الغزلان المشوية في أطباق فضية نُقشت عليها نقوشٌ غائرة لحيوانات.. وجلست نساؤه حوله على آرائك تضفرن شعورهن في صمت تام، وحولهن وصيفاتهن يتشحن بعباءات من الكتَّان المطرَّز.. انشغل المعبرون في قراءة علامات الفأل من الشقوق التي تحدثها الحرارة في لوح كتف الماشية، أو من دروع السلاحف المنتشرة في تلك القاعة الممتلئة حوائطها بهياكل ورؤوس الحيوانات المفترسة زينة لها، ما عدا الحائط الخلفي لعرش أتيلا فقد زينته جماجم

بشرية انتصر على أصحابها في معاركه السابقة وبينهم الوهق المعلق -ذلك الحبل المصنوع لصيد الحيوان- هواية أتيلا القديمة.. تنهد منتظرًا تأويل حلمه المتكرر من أولئك المماطلين.

همس الابن الأكبر إيلاك لأخيه الأصغر أرناك تحت أحد المشاعل المعلقة على الحوائط من شجر الصنوبر:

- لقد طفح الكيل.

- صه يا أخي! أنت تتحدث عن زعيم الهون.

- ذلك الغارق في الخمر ومعاشرة النساء! والآن يذهب عقله ليغرق في خيالات تتراءى له في تلك البلورة السحرية الملعونة.

- ما زال أبونا فارسًا مغوارًا.. لا تستجلب غضبه وأخِفِ مشاعرك تلك.

- لقد أخبرت عمنا بليدا.

- أيها العنيد! أنت تعرف أنه لا يطيق اقترابه.

قطع حديثهما شيخ المعبرين.. ناظرًا إلى الشامان الكبير الجالس على يسار أتيلا:

- فليسمح لي سيدي الشامان بشرح ما تعنيه تلك الرؤية.

- تفضَّل أيها المعبِّر.

اقترب المعبر من أتيلا وانحنى له احترامًا وتبجيلًا:

- سيدي الملك العظيم أتيلا.. ستُرزق بطفلٍ سيصير مُحاربًا هُمامًا ويسير على دربك ويُسيل من دماء الأعداء أنهارًا، ولن تغرب شمس إمبراطوريتك أبدًا على يده.

- وما معنى أنه ابن الطير؟

نظروا إلى بعضهم في فشل ذريع وحيرة منقطعة النظير.. أيام تمر ولا أحد يستطيع تأويل تلك الرؤيا.. صرخ أتيلا في وجوههم القبيحة الممتلئة بالبثور:

- لقد منحتكم المزيد من الوقت وما زلتم عاجزين.. يا حراس.. خذوا أولئك المعبرين وأعدموهم في الميدان.

- مولاي.. أرجوك.. أعطنا فرصة أخرى.

- خذوهم.

جرَّهم الحراس إلى خارج قاعة الحكم.. ارتشف كأسًا أخرى من القمز.. أشار بيده وبدأت الراقصات تتمايلن على إيقاع طبول إحداهن.

ظهر ذلك القزم المشوه الرأس (زيركون).. مهرج البلاط..

أخذ يتمايل ويجسد نكات يضحك لها الجميع ماعدا أتيلا:

- حينما قابلت فتاة أحلامي ارتديت بنطالي النظيف ووقفت أمام بيتها وغنيت لها قصيدة سمعتها في بلاد الفرس، ولكنني لا أتذكر مصدرها.. أتريدون سماعها؟

لم ينتظر إجابتهم بل تقمص دور العاشق الولهان مما جعلهم ينخرطون في ضحك لا يتوقف:

- لا تصدق أنك وحيد.. فأنا أسكن في وجدانك.. وأنت مزروع في وجداني

أنت أقرب إليَّ من نفسي.. وأنا أقرب منك إليك

لاتصدق أنك وحيد.. مادمت تمتلك قلبًا واحدًا وألمًا واحدًا

وما دمت في دروب العشق.. تضع رأسك على كتفي

القلب لا يطيق الوحدة.. لا تصدق أنك وحيد

أينما حللت في هذا العالم.. ستجدني إلى جانبك أنا وأنت فقط

أنا معك حيث تكون.. حتى وإن لم نكن معًا

حتى ولو للحظة أو ليوم.. لم نجتمع معًا في هذه الدنيا

دع هذا المنزل وارحل.. تعال معي لنبلغ معبد القلوب

لا تصدق أنك وحيد.. أنا معك من بيت الى بيت.. من بحر إلى بحر..

من نهر إلى نهر.. لا تصدق أنك وحيد.. تبًّا للقدر! أتدري؟ أنا حقًّا وحيد.. وأنت كذلك.. ولهذا أنا كاذب.

ما إن انتهى منها حتى امتلأت عيناه بالدموع الخفيّة التي يسترها طريقته في الأداء البهلواني.. ضجت القاعة بضحكاتهم.

شرد أتيلا في تاريخ قومه الرحالة المقاتلين.. إنهم في مهب رياح التغيير.. هؤلاء من جاءوا من بلاد ما وراء النهر من الغابات حيث أشجار السنديان الضخمة.. من بين الوحوش غير المعروفة في بقاع الأرض كالأيل ذي القرنين اللذين يشبهان أغصان الأشجار، والدب البني، والذئب، والأرخص، وثور بيسون الأوربي.. جاءوا متوحشين مرتدين عباءات عليها أشواك الفقر والعوز.. من كانوا يعيشون بين المستنقعات في قرى متباعدة من الأكواخ والخيام بين غابات تسكنها الأرواح معرَّضين للخطر.

من جاءوا من بقعة ما وراء حافة العالم، كما يعتقد الغرب، بعد بحر آزوف الضحل الممتلئ بالرواسب الطينية، شمال جبال القوقاز.. أطلق عليهم الرومان والقوط آنذاك (السكيث)، ووصفوهم في كتبهم:

- إن جنسًا من البشر قد ظهر للعيان من ركنٍ قصيٍ من الأرض.. مُقتلعًا ومدمرًا كل ما يصادفه في طريقه كأنه زوبعة تهبط من الجبال العالية.

واليوم اشتد الصراع بين روما الشرقية من ناحية وبين القوط والسرامطة من جانب آخر.. تتغير خريطة العالم رغم أنف الجميع.. انقسمت روما إلى شرقية مقرها القسطنطينية وغربية مقرها روما.. وجميعهم لا يحبون الهون.. فالقوي لا يحب من يفوق قواه.. يهابه فقط.. ويؤرق أتيلا أن يتلاشى هذا الخوف يومًا ما بالأخص حينما يرحل عن هذه الدنيا.. لا يرى فيمن حوله من يحمل راية القوم.. جميع أبنائه ضعاف؛ كل ما يهمهم الغنائم.. لم تَشغل بالهم أبدًا مسئولية الزعامة.. حتى أخوه بليدا.. كل ما يفعله هو جمع المال بأية طريقة ممكنة حتى وإن كان الثمن خيانته.

اتخذ قرارًا مصيريًا بغزو القسطنطينية في عقر دارها.. أتيلا يحلم بإمبراطورية وحيدة لا تضاهيها أخرى.. يُخطط لمحو روما الشرقية ثم روما الغربية ثم يتفرغ للفرس الذين اقتربوا من السقوط.. ليصير هو حاكم ذلك العالم منفردًا.. من حاكم شمال أوربا بدءًا من بحر الخزر إلى المحيط، ثم حاكم أوروبا بأكملها، ثم الحلم الأكبر.. مُلك العالم.. هكذا تنبأت فتاة الشمس في هلاوسه.. ولكن كيف؟ من غير المعقول أن يلد

الطير طفلًا.. هو يدرك ذلك جيدًا.. من الجنون انتظار ذلك.. عليه أن يبادر لتحقيق أحلامه بنفسه ويصارع الزمن.

تقدم أتيلا حشود جيشه عابرًا نهر الدانوب فوق جياده المخلصة وفي جواره أخيه بليدا مخلفًا وراءه ابنيه إيلاك وأرناك في العاصمة ليحميا ظهره.

حشود عظيمة في البراري يرتدون الجركينة -تلك السترة الطويلة الضيقة فوق بنطال من اللّباد- وحولهم الأبواق تقودهم نغماتها.. فتارة نغمتان طويلتان حادتان تعنيان الهجوم وتارة نغمة قصيرة منخفضة تعني التوقف، وكل شيء مُعلقٌ بإشارة من يد أتيلا.. القائد العام للحروب الهونيّة.

فرسان من رماة السهام يمتطون صهوات الجياد ويقتحمون المدينة تلو الآخرى، وساحات القتال تمتلئ بجثث من يفكر في مقاومتهم.. يسبقون الرياح ويقودون الناس أمامهم كالنعاج.. تتحدث الأساطير أن ملوكًا في زمان سحيق أبعدوا الساحرات إلى بلاد ما وراء النهر فعاشرن الأرواح الشريرة وأنجبن هؤلاء القوم.. الهون.. اسم ترتج له القلوب.

يهجمون فوق جيادهم كالبرق الخاطف والزبد يخرج من أشداق الجياد، لا ينهزمون وكأنهم فولاذ صلب.

أصوات الأبواق تسبقهم ومئات العربات التي تجرها الجياد خلفهم تحمل ذخائر وسهامًا وأقواسًا لا تنفد.. يدورون في فريقين بشكل معاكس ليحدثوا عاصفة فوقها سحب كثيفة من الغبار كدوامات تلتهم أعداءهم بقسوة.. حتى سهامهم تخترق الدروع والصفائح المصنوعة من البرونز بجدارة.

يركبون الجياد بدون سروج في أوقات الحرب.. يتدربون على ذلك منذ الصغر.. حتى يخالط بولهم دماءهم وتتصلب أعضاؤهم لتتحمل.

في عقر دار القسطنطينية يقف أتيلا مُنتصرًا وسط جثث جنود روما الشرقية والإمبراطور يطلب هدنة مع وقف للحرب مُستعدًا لتنفيذ كل شروط الهون.. لم يكن غريبًا على أتيلا ذلك النصر أبدًا.. تلك الابتسامة الواضحة على ثغره تُنذر بالهلاك.. يهتف له الهون:

- يحيا الملك أتيلا العظيم!

- يحيا الملك أتيلا العظي!

حشدٌ من الجنود الرومان يتقدمهم القنصل ليمد يد الخضوع لزعيم اكتسح أراضيهم.

كان من المتوقع بالنسبة إليه أن يطلب أتيلا توسيع رقعة إمبراطوريته والسيطرة التامة على القسطنطينية واحتلالها..

وقف الرجلان متواجهين.. أتيلا وسط جنود يهتفون باسمه بعدما سلخوا جلود ضحايا الرومان ووضعوها في أوعية ضخمة كما أمرهم أتيلا، والقنصل المنهزم.. ابتسم أتيلا في دهاء منقطع النظير:

- لن نطلب منكم التنازل عن العاصمة.

كان يعلم أن طلبًا كهذا قد يستوجب عليه الصدام مع الجميع فلن تقف روما الغربية حليفته مكتوفة الأيدي أمام تقدمه.. هي تعرف جيدًا أنها التالية ولذلك سيجتمع كل خصومه في جانب واحد، وبالطبع هو غير قادر على مجابهتهم في الوقت الراهن.. هذا ما كان يدور في رأسه.. لقد أحرز ما خطط له، ومن البداية حدد لنفسه نقطة التراجع تلك بعد اقتحام القسطنطينية حتى وإن كان الطريق إلى تراقيا مفروشًا بالورود فلن يخاطر الآن.. صافحه القنصل متوددًا:

- سيدي أتيلا! نحن نحترمكم ونوقركم ونتمنى أن نتعاون معًا في...

قاطعه أتيلا ذلك الماكر الذي خالط الشيب رأسه في سن الأربعين مبكرًا:

- نريد ثلاثمائة وخمسين رطلًا من الذهب سنويًا مع تسليم

اللاجئين الهاربين من بلادنا لديكم.

- أي لاجئين؟

- ماماس وأتاكام.

لقد غدر الاثنان المذكوران بأتيلا وسرَّبا خططه العسكرية وهربا إلى روما الشرقية، بل والأدهى أنهما كانا على اتفاق مسبق مع أخيه بليدا لمساعدته للتفرد بالحكم وخيانة أتيلا لمصلحة روما الشرقية.. وما إن حاصرهما حتى هربا إلى هناك.. لا أحد يعلم أنه على دراية بكامل الخطة ولكن (زيركون) مهرج البلاط القزم.. من تظاهر أتيلا ببغضه له وأرسله إلى بلاط أخيه الذي يتقاسم معه حكم الهون حتى نقل إليه كل ما تم من مخطط لاغتياله متلصصًا.

بُهت بليدا حينما استمع إلى ذلك.. قاطع أتيلا أمام قنصل روما الشرقية:

- أخي العزيز.. إننا هنا في القسطنطينية منتصرين ساحقين لجنودهم فلنحتلها ونخرجهم منها.. لنضمها إلى إمبراطورية الهون.

تجاهل أتيلا حديث أخيه ونظر إلى القنصل بحزم:

- أيها القنصل.. أنا زعيم الهون.. ومن اليوم لا حديث لكم إلا

معي.

برقت عينا بليدا.. تقدم بعض جنود الهون يشهرون سيوفهم في وجه الأخ بليدا بإشارة من أتيلا واقتادوه بعيدًا تحت الحراسة الجبريّة.

- لنكمل حديثنا إذًا.

- أعتقد أنه من الرحمة أن تسامح أخاك.

- في بناء الدول العظمى.. لا مجال للرحمة.. ما قولك في طلبي؟

- لديَّ تفويض رسمي بقبول شروطك.

- حسنًا.. سأنسحب وجنودي إلى منطقة الدانوب في موضع كارسيوم.

- وأنا سأسلمك ما طلبت هناك.

دقت الطبول بإيقاع رتيب وزلزلت أصواتها أرجاء الدانوب فوق السهول.. جيش يقدر بنصف مليون من الهون تتردد صيحاته عالية.. هواء يملؤه عبق الدماء العالقة بأقدام الجنود والجياد.. نصب الجلّادون وتدًا خشبيًا طوله لا يتعدى ثلاثة أمتار على هضبة علوية يراها الرومان من الجانب الآخر، أولئك المجتمعون ليشاهدوا مشهدًا مروعًا لهؤلاء

القوم الذين كادوا أن يقتلوهم ويبيدوهم عن بكرة أبيهم...

الوتد؛ أحد طرفيه مستدقٌ ومدهونٌ بدهن الخنزير، والآخر أكثر سماكة وثخانة..

لم يكن وتدًا واحدًا بل اثنين..

وجاء موكب القنصل من جديد محمَّلًا بصناديق الذهب المطلوبة والرجلين اللاجئين مقيدين.

تسلم الجنود الرجلين، وأتيلا يشهد ذلك وعيناه تبرقان من الانتصار والتشفي.. حرص أن يحضر أخوه بليدا تنفيذ حكم الإعدام هذا ويشاهد ما يحدث ليعرف عقوبة الخيانة.. الناس في البر الثاني يتهامسون خائفين من هؤلاء القتلة المتوحشين.. تسلم الجلادون الرجلين وقد وضع على فميهما ملصقان..

- انزعوا ذلك الملصق.

قالها أتيلا.. خلعها الجلادون.. صرخ الرجلان:

- الرحمة يا مولاي! الرحمة أيها الملك العظيم!

قُصت ملابسهما ليصيرا عريانين تمامًا ضاربين بتوسلاتهما عرض الحائط.. رُبطت سيقانهما بحبال يحملها رجال.. مُدَّت ساقا الضحية كل على حدة بشكل نسر نشر جناحيه على

يد رجال يسحبون تلك الحبال، ويُدق الوتد بالمطرقة في فتحتي شرجيهما.. مع توقيفات مؤقتة متكررة لتجنب إتلاف جسديهما الداخلي.. أصوات صراخهما تخلع قلوب المتفرجين من الرومان.. ربما يشعرون بالعذاب أكثر منهما.. نظر بليدا والدموع تملأ عينيه في عيني أخيه أتيلا الصارمتين.. لا مجال للرحمة أبدًا.. يعرف ذلك جيدًا.. منذ صغرهما وأتيلا قاسي القلب عنيد.. ذلك الغلام الذي صارع دبًا متوحشًا دفاعًا عن أبيه فقتله ثم قتل بيديه كل جنود الأب آنذاك لخوفهم من ذلك الدب- لا يمكن أن تعرف الرحمة سبيلًا إلى قلبه.

والآن عُلق الاثنان على الوتدين وكأنهما معلقان على سيخين يصل إلى كتفيهما بجوار العمود الفقري لكل منهما.. دُقت الطبول.. زادت صرخاتهما.. ظهر المهرج زيركون وأخذ يطلق نكاتًا.. يضحك الهون وتجلجل ضحكاتهم عنان السماء.. يرتعد الرومان.. يبكي بليدا.. يتحرك أتيلا مختالًا بمشية مليئة بالغطرسة والعجرفة ليصعد في جوار الرجلين مشاورًا بيديه.. فوضع الجنود ملصقين فوق أفواههما من جديد.. ساد الصمت للحظات، قطعه أتيلا:

- تذكَّروا جيدًا الهون.. تذكروا أتيلا.. يومًا ما سنحكم العالم.. تحت هذه الشمس.

استل سيفه وألقاه في الأرض فغرزه فيها.. صاح:

- أحذركم من التفكير في خيانتي.

في هذه اللحظة حدث ما لم يتخيل أتيلا أن يتحقق أبدًا.. طائر يقترب من وراء قرص الشمس.. إنه نسر أبقع.. لا يصدق ما تراه عيناه.. إنه يحمل طفلًا بين مخالبه.. يقترب.. وضع الطفل تحت قدميه وغادر.. لقد تحققت الرؤيا.. ابن الطير الذي سيمنحه حكم العالم في خلود شمس لا تغيب.. حول رقبته خيط يحمل حرفًا عربيًا.. السيد صاد.

-١٢-

الطريـــق إلى مكـــة

شمس حارقة لم تغرب لأكثر من شهر مكثه غالبا تحتها وطفله سين المتبقي من مأساة النبوءة .. هكذا سماها غالبا.. شمس لا تغيب.. أمر يتعدى أي منطق ممكن.. ونوم لا يكون.. ظل مستيقظًا طيلة الشهر من دون أن يغفل ولو مرة واحدة منذ تلك الليلة التي قابل فيها عمه الراحل سيجانوس.. حتى أنه لم يراوده ذلك الشعور بالتعب والإرهاق والحاجة إلى النوم أبدًا.. وما أثار ذهوله أيضًا.. الطفل سين.. لا ينام مطلقًا.

الكتاب.. كتاب هيبنوس.. الذي لم يحافظ عليه ليُبطل سحره.. كان عليه تسليمه للراهب المكيّ لربما عاد إليه طفله المفقود.. سيظل هذا الكتاب سببًا في صراع ابنيه.. نعم.. لقد أنذرته النبوءة بذلك.. سيمر زمان وزمان حتى يقتتلا.. من سينتصر؟ من يغزو مدن الأحلام..

هذا يعني أنه سيلتقي بابنه الضائع يومًا ما.. ربما حينها سيكون ألد أعدائه هو وولده سين.. ولكنه ابنه على أي حال.. أيبحث عن الكتاب بنفسه؟ ولكن أين؟

لقد سقط في عرض البحر.. وإن وجده.. هل سيحميهم ذلك من الصراع؟ يكاد أن يجن.. تساؤلات لا إجابة لها..

لا طائل من التفكير والعصف الذهني.. كل ما عليه فعله الآن هو تربية سين وإبعاده كل البعد عن الصراعات.. ربما تحدث المعجزة ويبطل سحر ذلك الكتاب.

اقتنع غالبا بإرهاصاته كل اقتناع.. باتت مشكلته الوحيدة.. كيف ينجو بحياة ذلك الطفل؟ شيء ما في داخله يطمئنه.. نظر إلى الشمس بعينين مفتوحتين..

يهمس:

- علامة ذلك خلود تحت شمس لا تغيب.

هل يعني ذلك أنهم لن يذوقوا الموت أبدًا؟ شهر بالكامل يمر من دون ليلة واحدة.. لم تغرب الشمس أبدًا.. الخلود.. سيعيش وطفليه أبد الدهر.. لا يفهم شيئًا آخر.. الطفل سين يتناول عصائر من الفاكهة المخزنة في ذلك المركب البحريّ، يعصرها غالبا له لمدة شهر.. الغريب أنها كانت تروي عطشه وتسد جوعه.

أرض بعيدة تلوح في الأفق بعد كل هذا التيه المائي.. أبحر غالبا متوجسًا ناحية هناك.. تملَّكه الخوف من جنود الروم.. لم يدرك في أي البلاد سيرسو مركبه.. حمل سين وقفز على الشاطئ.

زحام وأناس يملأون المكان حول بائعين يتراصون بمحاذاة الشاطيء يبيعون الأسماك والخضراوات.. لافتة كبيرة مكتوبة باللغة اللاتينية.. قرأها.. سوق قرطاج.

- الأسماك الطازجة.

- سمك البربون الطازج.

اللعنة! إنه في بلاد الرومان.. قرطاج عاصمة شمال إفريقيا.. تلك التي قرأ عنها وعن الحروب التي خاضها أهلها لسنوات طويلة.. الحروب البونية.. وقائدهم حنبعل الذي اقتحم جبال الألب في أوربا بجيش من الأفيال وهُزم.. مدينة ساحرة دمرها الجيش الروماني وذبحوا أهلها وحرقوها واتخذوا من تبقى منهم عبيدًا، حتى جاء يوليوس قيصر فأعاد بناءها وأسكن فيها الرومان وجعلها عاصمة شمال إفريقية.

- الأسماك الطازجة.

شعر غالبا أنه في خطر شديد وسط هؤلاء الرومان.. ولكنه ابتسم مطمئنًا. لقد وُعد بالخلود.. سينجو بكل تأكيد.. اخترق زحامهم.. لديه صرةٌ من العملة الفضيّة.. عثر عليها في غرفة العم سيجانوس.. نظر حوله.. سوق ضخم.. مرتادوه من الروم فقط.. لا أحد هنا غيرهم.. ملابسهم توحي بذلك.. وهو مثلهم.. فهو من الروم أيضًا.. لم يكن شاذًا عن مظهرهم

العام.. غاية ما هنالك هو اتساخ ملابسه.

بين ضجيج البائعين ووجوه مرتادي السوق ونميمتهم المختلطة وزحامهم، ذاب غالبا وطفله.

توقف عند أحد البائعين مبتسمًا وكأنه وجد ضالته:

- أريد شراء ذلك الجمل وتلك العنزة.

نظر له الرجل في شك:

- ألديك ثمنهما؟

- نعم.. خذ ما يكفيك.

ناوله صُرَّة النقود.. وما إن أمسكها الرجل حتى تغيرت معاملته.. حدثه بلهفة:

- هما لك بكل تأكيد.

- أريد منك فقط أن تعطيني ماءً يكفي لرحلة طويلة وبعض الخبز.. وتدلني كيف أسافر إلى مكة.

- مكة؟

تعجب الرجل وظل يتفرس في وجه غالبا.. لم يتركه غالبا كثيرًا فريسة احتمالاته.. فباغته بقصة اختلقها بنجاح:

- نعم.. لقد سافر عمي إلى هناك في قافلة تجارية وغاب

لأكثر من عام ولذلك أريد السفر إلى هناك لأتتبعه.. أنا قلق عليه للغاية.. ربما مسه مكروه.

- أأنت من قرطاج؟

- كلا.. من روما.

- كان عليك أن تبحر إلى الإسكندرية.. ذلك أقرب لك من هنا.

- ماحدث حدث.. هل تدلني؟

- نعم.. بكل تأكيد.. استمع لي جيدًا.

-١٣-

ابـــن الطـــــير

دُقَّت طبول الزعيم الهونيّ وفُتحت بوابات قصره الكبير ليدخل موكب الشامان الأكبر محمولًا فوق عربة من الخشب المزخرف على أكتاف العبيد.

حشد مهول من الهونيين جاء بطلب مباشر من أتيلا ليشهد ميلاد ابن الطير.. هكذا أُشيع في البلاد.

جلس أتيلا فوق عرشه الخشبي الضخم في منتصف باحة القصر الشاسعة وفي جواره ذلك الطفل(صاد) ابن الطير، كما أُطلق عليه، على كرسي خشبي صغير صُنع له خصيصًا تسانده مرضعته الخاصة (فلدونا) التي اختارها أتيلا له بعد طول بحث وتنقيب.

على يسار أتيلا يقف أولاده الستة من أصغرهم أرناك لأكبرهم إيلاك، والغضب يملأ وجوههم.. من هذا الذي يرث أباهم وهو على قيد الحياة غيرهم؟

تعالت دقات الطبول.. نزل الشامان العجوز من فوق موكبه وانحنى لأتيلا.. ابتسم له:

- فلتبدأ.

خيمة كبيرة في منتصف الباحة من اللّباد دائرية مقيد في جوارها خيول بحبال سميكة، وفي منتصفها شجرة من السندر تنغرز جذورها في موقد ملتهب ويخرج أعلاها من الخيمة.

دخل الشامان الأكبر إلى الخيمة.. بدأ في تسلق شجرة السندر المجهزة بمصاطب خشبية صغيرة يضع عليها قدميه لتساعده في الصعود.. اخترق أعلى الخيمة واستمر.. نظر الناس لأعلى نقطة منتظرين أن يصل إليها الشامان.. أقرب نقطة للسماء.. يسمون تلك الشجرة.. شجرة حارس الباب.. لأنها تفتح للشامان مدخلًا للسماء.. وصل الشامان الأكبر وأفلت إحدى يديه ونظر ناحية السماء الزرقاء الصافية صامتًا .

صمت مطبق لا يقطعه غير صوت دقات الطبول.. ثمة طقس آخر يدور في تلك اللحظة أمام الخيمة.. جمع من الرجال العواجيز الذين قد تخطوا عمر الستين مقيدة أياديهم خلف ظهورهم، وجاثين على أرجلهم، ومطأطئي الرؤوس فوق قواعد حجرية أُعدت لهم، ويقف خلفهم جنود من الهون ممسكين بسيوفهم البتَّارة في انتظار الإشارة.

نهض أتيلا واقترب من الخيمة وأشار بيده.. ارتفعت السيوف وبترت رؤوس العواجيز من الرجال.. إنها سنة

الشامانيين في الأرض.. من لم يُقتّل في الحروب يلاحقه العار.. وعليه أن يُسلِّم روحه للشامان والملك عن نفس راضية في عمر الستين.

تناثرت الدماء على وجوه الجنود وخرت الأجساد.. التف الجنود سريعًا وجمعوا الدماء التي تخرج من أجسادهم المرتعشة في أوعية.. وما أن هدأت فورتها حتى قذفوا بتلك الدماء على العامة.. كانوا يغسلون بها وجوههم في متعة وقدسية.

- مرحى لتلك الدماء المقدَّسة!

نظر حينها إلى الشمس.. صمتت الوجوه المخضبة بالدماء.

بدأ حينها الشامان الأكبر في مغادرة أعلى الشجرة متجهًا إلى الأسفل.. قفز بعيدًا عن اللهب وخرج شامخًا في جوار أتيلا.. ابتسم له.. دب يده في إناء ممتلئ بدماء القرابين المختلطة ثم توجَّه إلى الطفل الجالس على عرشه الصغير وخضَّب جبينه بالدم.. تتابعه العيون القلقة الحائرة.. في لحظة لم ينسها أتيلا طيلة عمره.. انحنى الشامان الأكبر للطفل.. ذُهل الناس.. لم يفكروا كثيرًا.. انحنوا مثله.. آلاف من الهون ينحنون للطفل صاد.. وانحنى معهم أتيلا.. أما أبناؤه فانحنوا على مضض خوفًا من الخروج عن النظام العام.

ارتفع الشامان برأسه صائحًا بعيون تملؤها الدموع:

- إن لهذا الطفل شأن عظيم.. سيقودنا نحو حكم العالم.

قاطعه أتيلا:

- صاد.. الطفل صاد.

تلألأ الحرف صاد المربوط في صدر الطفل علامةً بارزة.. هلل الناس:

- فليحيا الطفل صاد! فليحيا الطفل صاد!

لوحـــــة نصـــــــفي العـالم

أمسك عازف الكمان آلته واهتزت الأوتار بلحنٍ سيمفوني صوته يملأ الأرجاء وكأن وراءه عدد لا نهائي من العازفين.. ما زلتُ فوق الصليب الخشبي مقطوع اليد اليسرى.. آلام عنيفة تهاجم جسدي.. أحدهم يفك يدي اليسرى ويضعها في إناء من الزيت المغلي.. أصرخ عاليًا.. الناس تُحدق فيّ.. تضحك وداد الحمراء.. تتحرك أمامي وكأنها تخطب في الحضور المقتربين منا في بطء:

- انطلق ركبي العالم في نصفين منفصلين بعيدين عن بعضهما كالأرض والسماء، ولكن سيقدر لهما يومًا ما أن يتقابلا.. سين وصاد.. كأنك ترسم لوحة وتُقسمها نصفين لكل منهما، ولكن أهما متساويان؟ ذلك ما لا يمكن تحديده.

فلتجلس معي وتتابع وكأنك تشاهد فيلمًا سينمائيًا شاشته مقسومة.. حاول أن تستجمع تركيزك في طفلين متطابقين في الشكل ولكنهما مختلفان كليةً في النشأة.

في الجانب الأيمن.. غالبا يُغير اسمه إلى غالب ويصل إلى مكة بعد طول عناء وعثرات واجبة لمن هو مثله في رحلة لم تكن على البال أو الخاطر.. رحلة بلا نوم تحت شمس لا تغرب

أبدًا.. وطفل يشرب لبن العنزة، وكأنه قُدِّر للأخوين أن يكون أحدهما ابنًا للطير والآخر ابنًا للعنزة.

في مكة يبيع غالب الجمل والعنزة ويشتري بثمنهما بيتًا صغيرًا في شعاب مكة بالقرب من الكعبة التي يحج إليها الناس من مختلف بقاع الارض.. وبعضًا من الأدوات التي تفتح له بابًا جديدًا للرزق.. فقد اتخذ قراره للعمل إسكافيًا كما تعلَّم من العم سيجانوس.. بعض الجلود والآلات كانت كفيلة بالبداية في زاوية خارجية من البيت المبني من الطوب اللبِّن على شكل دائري.. فالناس هناك يخافون أن يبنوا بيوتهم على نفس شكل الكعبة.

أما في الجانب الأيسر.. حاول أبناء أتيلا التخلص من الطفل صاد.. أرسلوا إلى غرفته، التي هي كالحصن المنيع، رجلًا من أبناء ماماس -من مات بالخازوق على يد أتيلا- يملؤه الحقد والغل تجاهه.. سهلوا له كل شيء حتى باب غرفة الطفل ولكن أحد الحراس تمكن من القبض عليه رافضًا الرشوة المالية المقدمة من إيلاك بترك مكان حراسته ليلًا.. وأُعدم الرجل.

نفس الحارس هذا تعرض إلى ضغوطٍ عديدة من إيلاك حتى خضع لطلبه واقتحم غرفة صاد ليقتله، ولكنهم في الصباح عثروا عليه مذبوحًا في جوار الطفل وكأنه ذبح

نفسه.. فزاد الغموض حول الطفل صاد.. وزادت الحراسة حول صومعته وحرص أتيلا على حمايته والسهر في جواره أيامًا.. أتيلا هو الآخر لم يعد ينام مطلقًا منذ ظهور صاد.. بات يعيش في خلود شمسيّ تحت شمس لا تغيب.. أدرك أنها العلامة التي أخبرته عنها وسن في بلورته الزجاجية التي انعدمت فيها رؤياه من اليوم الذي ظهر فيه الطفل صاد، فلم يعد ينام على الإطلاق وانعدمت أحلامه.. راوده شعور ملأ صدره بالتمني.. لن يموت إلى الأبد.. وكذلك الطفل الذي لا ينام منذ أن وقعت عيناه عليه.

في إحدى الليالي.. دهنت مرضعته (فلدونا) صدرها بالسم لتتخلص من ضغوطات أرناك، الولد الأصغر لأتيلا، وتهديده بقتل أطفالها إن لم تستجب له، ودخلت إلى صاد لترضعه ولكن السم تمكن منها وسقطت ميتة قبل أن تصل إليه.

لم يدرك الجميع أن هناك عينًا ترصدهم.. من كلَّفه أتيلا بتتبع المحرض على قتل الطفل صاد..

زيركون المهرج المخلص.. حتى جن جنون أرناك وفقد عقله مُقتحمًا غرفة الطفل وفي يده سكين.. وقبل أن يقترب جذبته قوة خفية وحملته لتقذفه إلى حائط الغرفة بعدما شلت حركته.. كُتبت على الحائط طلاسم غير مفهومة.. وتعالى صوت صافرة حادة كادت أن تصم أذنيه.. لم يسمعها

غيره واختفت سريعًا، ولكن بعد أن سلبت سمعه تمامًا.. في هذه الليلة قُبض على أرناك و صدر الأمر بإعدامه بيد أبيه في جوار عمه بليدا الذي لم ينفذ فيه حكمه حتى اللحظة.. واجتمع الناس في باحة القصر من جديد بحضور الشامان الأكبر ليبارك القربان الجديد الممنوح من الملك بابنه وأخيه.. ومات بليدا وأرناك مصلوبين مذبوحين.. ومن هذه اللحظة توقف الأبناء عن إصرارهم على إهلاك الطفل صاد.

اضطراب زمني لم يعد له مكانٌ في رأس غالب.. فعندما وصل إلى مكة أخبره الناس بأنهم في القرن الخامس الميلادي.. وكأن رحلته من روما إلى مكة قد استغرقت أربعمائة عامًا.

شب صاد في بيئة ينحني له كل من فيها فأمتلأت نفسه بالغرور تحت شمس لا تغيب، وقصة يرويها له أتيلا دومًا عن طريقهما معًا إلى حكم العالم تحت شمس لا تغيب من دون نوم.

امتلأ بيت غالب الإسكافي الغامض بكتب عديدة أوصى بها القبائل المختلفة لجلبها له مقابل المال.. فقد حقق نجاحًا في فترة زمنية قصيرة.. وانعزل يقرأ ويقرأ عن كل شيء كما كان في روما.. لم يشغله غير ابنه سين.. عاش به في عزلة عن الناس حتى صار فتى يافعًا.. شبّ سين وصار مساعدًا لأبيه

ومنفذًا لنصائحه.. ذلك الفتى الطيب الذي لم يرَ غير الشمس طوال عمره..

ذات مرة سأل أباه غالب سؤالًا اغرورقت له عيناه:

- هل تتذكر القمر؟

- لقد زال بغياب فستال.. وكأنها كانت السبب في توازن كوني.

- هل تبغض الخلود الشمسي يا أبي؟

- كلا.. ولكنني إنسان فُطِر قلبي على الفناء.

- من الصعب الخروج عن الجمع البشري.

ما زلت مصلوبًا فوق ذلك الهيكل الخشبيّ ووداد الحمراء تقترب مني هامسة وسط آلام لا حصر لها:

- الآن فلتبدأ القصة.. ستغيب عن الوعي.. ستحلم من دون أن تدري أنه حلم.. ستكون أنت سين وستكون أنت صاد.

ترفع وداد لوحة زيتية في وجهي كانت آخر ما رأيته قبل أن أسقط في ظلام كثيف..

أراني فوق جواد مرصع بسرج من الذهب مختالًا وسط جيش الهون.. وأراني أضرب بمطرقة فوق حذاء أصنعه في

شعاب مكة بالقرب من البيت الحرام..

سين وصاد.. نمت.. اختفيت.



-١٥-

مدينـــة الخـــــزر- بلنجــــر

جنوب القوقاز

أفتح عينيّ.. كنتُ منطلقًا فوق جواد على رأس جيش.. يبدو أنني غفوت للحظات.. تنهدتُ..

منذ أن صرتُ شابًا وأنا أخرج على الدوام بدلًا من أتيلا في مقدمة الهونيين.. كبيرًا لجيوش الهون.. لم أخسر معركة واحدة.. كل ما يسيطر على عقلي الآن أنني حقًا السيد صاد السائر بخطى ثابتة نحو حكم العالم.

انطلقت فرقة من جيش الهون بقيادتي مخترقة السهوب والهضاب نحو بلاد بلنجر عاصمة الخزر، عبر الطريق الساحلي الجديد الوحيد على طول بحر الخزر، بعد أن انحسر البحر منذ زمن قريب مخلفًا ذلك الطريق ليغدو معبر الهون نحو جنوب القوقاز وغزوه، بعد قرون طويلة من العزلة بسبب الجبلين الشاهقين الممتدين بين بحري الخزر والبنطس.. حتى الممر بينهما كان مغلقًا بسد منيع فصل شمال وجنوب القوقاز عن بعضهما، المُلقب بسد المحارب.. بناه قائد محارب قديم وطأت أقدامه وجيشه جنوب القوقاز وطلبوا منه حمايتهم من سكان شمال القوقاز الوحشيين

فساعدهم في تشييد ذلك السد وعاش الخزر في سكون يسبق العاصفة حتى انحسر البحر.

سقطت الخزر وعاصمتهم بلنجر تحت حكم الهون، وملكهم الخاقان أصبح عاملًا للهون عليهم.

السيد صاد.. أنا.. الفتى الأول في الهون.. المستشرق له نحو حكم العالم.. أختال فوق جوادي ذي السرج الذهبي نحو بلنجر.. على الرغم أن العادة تحكم علينا بامتطاء الجياد من دون سروج ولكن يستثنى من ذلك أتيلا وأولاده وأنا.. السيد صاد.. المتغطرس الغرور كما يقولون عني.. بات عقلي مسرحًا للتساؤلات المتناقضة.. كل ما يشغل رأسي حقيقة شخصيتي.. لم أُفصح بهذه الهواجس لأحد.. احتفظتُ بها في رأسي لأُحافظ على صورتي في أعين الناس.. ولكنني أتساءل:

- كيف للطير أن يلدني؟

ذلك السؤال الذي لا إجابة له.. سؤال قاسٍ.. كيف لي أن أعيش حياة إنسان دنيوي؟ أنغرز في الحياة بكل مشاعري المكبوتة.. وأنا أشك أصلًا في كوني بشرًا.. ربما أنا طائر في شكل بشري.. عقلي يحدثني دومًا بالشك في كينونتي.. ذلك الصراع الداخلي يمزقني.. كم تمنيتُ أن أعيش حياة هادئة في بيت يطل على بحر الخزر أستمتع بالسكون

واعتزال الناس كأي إنسان له أم وأب وأحباب.. ولكنه القدر.. المخلوقات لا تختار حياتها.. الجميع مجبرون.. يُجبرون على المجيء إلى الدنيا رغمًا عنهم.. لو منحوا الاختيار فسيمتنعون لا محالة.. عالم مليء بالشقاء والحروب والدماء والعوز.. الفقير يحارب من أجل قوت يومه للاستمرار في الحياة والغني يحارب ليحافظ على ما جناه.. حتى الموت لا يختارون ميعاده بأنفسهم..

همستُ لنفسي قبل أن ألج بجيشي الصغير أبواب قصر الخاقان الذي فُتحت أبوابه على مصراعيها لنا.. ناظرًا إلى شمسي الخالدة:

- سأحكم العالم وإن كنت ابن طير.. ربما يُعزيني ذلك.

توقفتُ برهة ونظرتُ خلفي إلى هذه المدينة بلنجر المتمركز فيها الخزر.. أعجبني موقعها.. يحميها بحر الخزر من الشرق، والجبال من الشمال، والغرب البعيد بحر البنطس.. هذه الأرض أكثر أمانًا من بلاد الهون المفتوحة جبهاتها على مصراعيها.. هكذا فكرتُ في تلك اللحظة.

مبانٍ مستطيلة في شكل دائري ولها ساحات للأغنام والأبقار.. الخزريون.. شعب يرتدي الجواكت الطويلة ويضفرون شعر رؤوسهم.. لا أحد هنا مسموح له بترك شعره حرًا ماعدا الخاقان والخاقان بك المسئول عن الحملات

العسكرية وإن كانت ضعيفة، فالخزر لا يحلمون بالسيادة.. ذوو البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والوجوه المائلة إلى الحمرة لم يعرفوا الحروب إلا للدفاع عن أراضي قبيلتهم وعاصمتهم بلنجر، وجيشهم ضئيل العدد وما إن انهزموا بسهولة حتى رضخوا تحت حكم الهون واستكانوا لهم.

- السيد صاد كبير جيش الهون!

نادى بها أحد الحراس المُكلفين بحراسة سيدهم خاقان الخزر.. وقف في استقبالي مع رهطٍ من جيشه في باحة عرشه الخشبي:

- مرحبًا بالسيد صاد.

مددتُ يدي ليقبلها الخاقان ومن معه من رجال الدولة الخزريين.. سألته:

- أين هم؟

- أقسم أنني...

قاطعته بحدة:

- لا تطل في ثرثرة لا طائل منها.. أين هم؟

- أيها الحراس.. فليدخل رُسل البيزنطيين.

انفتح أحد الأبواب المطلة على باحة القصر ودخل بعض الرجال المقيدين.. زيُّهم البيزنطي يميزهم.. قميص من الحرير المنقوش الطويل الذي يصل إلى الركبة.. أكمامه طويلة ضيقة تصل إلى معصم اليد.. وطوق يزين الرقبة مرصعٌ بالجواهر.

- يبدو أنكم من المقربين للإمبراطور.

- سيدي.. نحن ما جئنا هنا إلا لحمل الهدايا وتقديم دعوة للسلام.

قالها أحدهم.. نهرته صائحًا:

- قُضي الأمر.. من استقبل هذه الهدايا؟

أجابني الخاقان:

- لقد وصلني أن الخاقان بك وبعض الأمراء في جيش الخزر يتلقون هدايا من الإمبراطور البيزنطي وأن رُسُل الإمبراطور يريدون مقابلتي.. ولهذا أرسلت إليكم لأخبركم وتحفظت على الرسل.

- أين أولئك الخائنون؟

أشار الخاقان بيده.. فدخل بعض الحراس ببعض الأمراء الخزريين مقيدين ومعهم الخاقان بك.

منزعجًا بشدة.. صرخ فيهم:

- ما هكذا يُعامل قادة الجيوش.

اقتربتُ منه مبتسمًا:

- كنت.. قبل أن تخون.

أشرتُ إلى حاجبه فأخرج لفافة من ورق البردي وشرع في قراءتها:

- من الزعيم أتيلا الهوني وقائد الجيوش السيد صاد ابن الطير وعقابًا على خيانة بعض أتباعنا الخزريين بالتعامل المباشر مع أعدائنا البيزنطيين-روما الشرقية، وعلى الرغم من أنهم يدفعون لنا مقابل السلام، ولكنهم يُصنفون أعداءً واضحين وضوح الشمس والجميع على علم بذلك.. ولذلك فقد قررنا ما يلي:

- أولًا: إعدام كل من قبل هذه الهدايا من الخزر صلبًا في باحة سوق بلنجر في حضور الشعب الخزريّ.

ثانيا: إعدام الرُسل البيزنطيين وإرسال رؤوسهم المنحورة في صناديق ذهبية إلى الإمبراطور البيزنطي.

ثالثًا: حكمنا بزواج الأميرة الخزريّة الابنة الكبرى للخاقان من الإمبراطور البيزنطي على أن يكون مهرها ألفًا وخمسمائة

رطلٍ من الذهب تصل إلى خزانة الهون قبل نهاية الشهر.

انتهى.

الهون.. الشامان.. السيد صاد.

لقد أنقذ الخاقان نفسه؛ فلو لم يُبلغ عن هذه الهدايا لكان على رأس قائمة الإعدام.. نُصبت منصة الإعدام ونُفذ الحكم في حضور الشامان الأكبر للخزر بنفس طقوس الهون.. خيمة يتوسطها شجرة السندر الموقد أسفلها، والخيمة المخترقة مواصلة طريقها إلى السماء.. ودماء المذبوحين العجائز، من تخطوا عامهم الستين، على الرغم من قلة الحروب الخزريّة ولكنهم التزموا بذلك الطقس وربما أخذوه من الهون.. إعدام كل من يصلون إلى سن الستين من دون أن يموتوا في ساحة قتال.. حتى ملكهم الخاقان هناك اتفاق تتوارثه الأجيال أن مدة حكمه لا تزيد عن أربعين عامًا.. وإن أكملها وما زال على قيد الحياة تُقام له مراسم الإعدام عن طيب خاطر ويموت مشنوقًا بيد الشامان الأكبر ليتولى حكم البلاد خاقان جديد.

حُملت الصناديق المتساقطة من جوانبها الدماء برؤوس رُسل البيزنطيين إلى الإمبراطور مع رسالة صغيرة بموعد زفافه على الأميرة الخزريّة في القسطنطينية، على أن يُرسل مهرها إلى خزانة الهون قبل الموعد.

أُسقط في نفس الإمبراطور عندما فتح تلك الصناديق وقرأ الرسالة.. أمر فورًا بعودة نفس الصناديق من دون غسلها محملة بالذهب المطلوب مُبديًا ترحيبه بذلك الزواج.. ذهب بعبق الدماء يلطخ بريقه.. هكذا كان رده الذكي.

-١٦-

القسطنطينية

ترجلتُ فوق حصاني بمفردي في شوارع القسطنطينية أثناء الفرح الكبير المقام في قصر الإمبراطور على الأميرة الخزرية، بعدما قدتُ بنفسي موكب العُرس أمام عشرة خيام فوق عجلات تجرها الجياد ذوات الأبواب المكسوة بالذهب والفضة وباركتُ الزفاف.

وسط الزغاريد والتهليلات الكاذبة والوجوه المصطنعة فرحتها بنجاح منقطع النظير خرجتُ تتقاذفني أمواج الزيف البشري.. المدينة الممتلئة بالتماثيل والزخرفات.. اخترقتُ ذلك المربع الخاص بالحكم المسمى أوغستيوم مبتعدًا عن القصر الكبير وقاعة مجلس الشيوخ ودار الولاية المسماة محكمة القانون حتى عبرتُ ميدان القسطنطينية البيضاوي.. توقفتُ أمام تمثال أغسطس.. تنهدتُ.

عند حمامات زاكيبكوس.. تلك الحمامات العامة كما كُتب على لافتتها الكبيرة.. استمعتُ إلى صوت يناديني:

- أيها القائد الهمام!

التفتُّ خلفي.. إنه زيركون مهرج البلاط الهونيّ المخلص.

- زيركون!

- اعذرني فقد خفت أن يلحق بك سوء فتتبعتك لأحميك.

ضحكتُ كثيرًا.. ترجلتُ من فوق جوادي ساخرًا:

- اعذرني يا زيركون... أنت تحمي كبير جيوش الهون؟

- ربما أخطأت التعبير.. أنا فقط يساورني القلق بشأنك.

- لا عليك.

تردد كثيرًا قبل أن يُكمل حديثه:

- أريد أن أطرح عليك سؤالًا ولكن عليك أولًا أن تُفسح صدرك لي.

- أنا أحبك يا زيركون.. وأنت تعلم ذلك جيدًا.

ترجلنا معًا فوق الطريق الرخاميّ تحفُّنا الورود الحمراء المبهجة الممتلئة بها شوارع روما ورائحتها النفاذة تنعشنا.. سألني زيركون بغتة:

- لقد اقترب عمري من الستين.. هل ستذبحونني طبقًا للشامانية؟

- أتريد أن تعيش أكثر من ذلك؟

- نعم.. الحياة رائعة بكل متاعبها.. مذهلة رغم الآلام.

- أتعرف؟ أنا أحقد عليك.

- عليَّ أنا؟

- عشت حياتك بنفسك ولنفسك.. لامست متاعبك وعايشتها ومررت بمصاعبك وأنت تتذوق طعم النجاح والإخفاق على لسان روحك.. بصمة لا ينالها غيرك.

- أشعر ببعض الحزن في حديثك.

- أخبرني يا زيركون.. كيف ترى الهون؟

- أراهم عظماء ضلوا الطريق.

- كيف؟

- نحن قوم لا مثيل لنا في هذا العالم.. بالفعل نستحق أن نتسيده ولا يقف أمامنا أحد.

- ولكن؟

- النفس البشرية تحاربنا.. أشد عدو لنا.. أخطر من الروم بقسميها والفرس والسرامطة والقوط وغيرهم.

- النفس البشرية!

- نعم.. الحقد والغل والصراعات والقتل وشهوة التملُّك والسلطة في غير موضعها.

- هل لك أن توضح أكثر؟

- أعطيك مثلًا.. إيلاك ابن الزعيم أتيلا.. رجل فاسد لا يُشغل باله إلا محاربتك بكل السبل.. يفعل ذلك خفية ولا يمكن أن يُكتشف لأنه ماكر للغاية.. ولكن لطالما أخبرني سيدي أتيلا عن خوفه عليك من إيلاك.. لدرجة أنه قد فكر في إعدامه كما فعل مع ابنه أرناك فيما سبق.. ولكنه تراجع.

تنهد زيركون:

- لم يعد أتيلا حاسمًا كما كان.

- غيبه الخمر وكثرة الزواج من فتيات يصغرنه بأكثر من ثلاثين عامًا.

- أمثال إيلاك هذا كثيرون.. الهون يأكلون بعضهم البعض إلا من ينحني لك ويتبعك عن طيب اقتناع..

أولئك فقط الصادقون.. من يمكن أن تعتمد عليهم لمجابهة الأعداء.

- أعرفهم كما أعرفك.. أستطيع أن أقرأ حقيقة مشاعرك بمجرد النظر في عينيك.

- لذلك تعرف أنني أحبك بإخلاص.

تنهدتُ:

- هذا الشعب على شفا جرف من الجحيم.. ينتظره الفناء بين الحين والآخر..

سيفترسنا الأعداء من كل جهة.. القوط.. البيزنطيون.. الباغودا.. الفاندال.. السرامطة.. سنحترق مع تلك الحرائق المشتعلة في بلاد الغال.

- أيحدث ذلك وابن الطير معنا؟

ابتعدتُ عن زيركون وامتطيتُ جوادي من جديد.

- لا تشغل بالك يا زيركون.. لنعد إلى الحفل.

اندمج الروم الشرقيين في رقصاتهم تعبيرًا عن فرحهم بزواج الإمبراطور وسط معازف تنشر البهجة من آلات فرقة موسيقية تعلو منصتين رخاميتين على جانبي الباحة، وفي المنتصف جلس الإمبراطور مع عروسه الخزريّة على عرشين من ذهب.. امتلأت الباحة بالراقصات الروميّة تتمايلن في غنج ودلال في رقصات استعراضية رُسمت بعناية بالغة لتُحدث لوحة من لوحات الفن البديع.

جلستُ بجانب حاشيتي من الهون وزيركون يصاحبني

في الصف الأول للمقاعد الرخاميّة النصف دائرية المحيطة للباحة.

لفت نظري فاتنة تجلس في الجهة الأخرى في الصف الأول المقابل.. فتاة سمراء رائعة الجمال مرصعة رقبتها بالجواهر التي لم تخفِ جمال نهديها.. كانت تنظر للشمس بعيون جريئة شاردة.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها فتاة تخطف بصري.. على الجانب الآخر تنظر لي الفتاة.. لم أعرف أنها (وسن) هي فقط من تعرف بالسوار حول معصمها.. وسن في شخصية مغايرة داخل الحلم الورديّ الذي غاب وعيي تمامًا عن إدراكه.. ابتسمت لي.. لاحظ زيركون أنني أنظر لها فهمس لي في خبث:

- إنها هونوريا.

- هونوريا!

- فاتنة روما الغربية.

- فاتنة حقًا.

- نعم.. يلقبونها أوغستا ذات الهيبة والجلال.. أمها غالا بلاسيديا بنت ثيودسيوس العظيم. ألم يخبرك عنها الزعيم أتيلا؟

- كلا.. ما قصتها؟

- عجبًا.. أأنت متأكد أنه لم يخبرك؟

- زيركون! أتيلا غاب عقله.. أنت تعرف ذلك.. ولولا وجودي في الهون لانتشرت الفوضى منذ فترة.

- هذه الفاتنة كانت تحلم بحكم روما بدلًا من أخيها.. بل وخططت لذلك مع حاجبها..

ولكن القدر كان أسرع.

- كيف؟

- دخلت في علاقة عاطفية مع الحاجب وحملت منه طفلًا في أحشائها.. وافتضح أمرها..

فأعدم أخاها الحاجب ونفاها إلى هنا في القسطنطينية.

- والطفل؟

- يبدو أنها فقدته بسبب ضرب أخيها لها قبل النفي.

- أهذا كل شيء؟

- كلا.. لقد أمر أخوها بزواجها من أحد أعضاء مجلس الشيوخ في روما الشرقية..

فرفضت وأرسلت بخاتمها إلى أتيلا مع رسول.

- أتيلا؟

- نعم.. تطلب منه أن ينقذها من ذلك العجوز الذي يخططون لزواجها منه.

- ذلك يعني أنها تعرض على أتيلا أن تصير زوجته.

- مقابل إنقاذها.

- وماذا فعل أتيلا؟

- أرسل بخطاب إلى الإمبراطور أخيها يطلب منه تسليمه هونوريا مع نصف ملك روما الغربية.

انتابه الغضب بغتة.. أردف متساءلًا:

- أيفعل كل هذا من دون أن أعرف.. ذلك الرجل الذي عسف بالبلقان وأرهب أباطرة المشرق يتصرف هكذا من دون ترتيب؟

- لذلك تعجبت كثيرًا أنه لم يخبرك.

- أشم رائحة إيلاك في هذا الأمر.

- إيلاك!

قطع حديثنا ذلك البريق القافز من عينيها ملقيًا سهامه نحو قلبي.. سحرتني عن بعد.. إن لها جمالًا لا يقاوم.. إنها

المرة الأولى التي يدق فيها قلبي لفتاة.. حتى أنني اقتربتُ من الاقتناع بأنني حقًا لا أملك قلبًا كالبشر تتحرك مشاعره.. شعور خافت يهمس في أذنيّ:

- أنت إنسان تحب وينبض قلبك بالعشق.. أنت لست طائرًا.

والتقت عينانا.. رأتني أفترسها بنظراتي.. بالطبع هي تعرفني.. ذلك الفتى الجسور.. من يتبعه كل قبائل الهون المرعبة.. تعلقت عينانا ببعضها البعض.. طيلة الحفل ظللنا صامتين ننهل من بحور العسل في عيني كلٍّ منا.. نسبح فيها عاريين من دون حجاب بل ونلتصق في جنة لم تطأها قدماي من قبل.

نهضت هونوريا تُلقي شباكها عن بعد على صيد ثمين لم يكن في الحسبان.. ترجلت وهي تعرف أنني اتتبعها.. مرت عبر رواق القصر.. غرفة صغيرة في نهاية الباحة أمام أشجار الرمان المنتشرة ظلالها فوقها.. دخلت.. هرعتُ إلى هناك..

صوت الحفل مستمر بالقرب منا.. رأيتها تنظر لي وأنفاسها تتابع بعيون جريئة يملؤها الغنج.. أغلقتُ الباب خلفي.. لم نتحدث ولو بكلمة واحدة.. اقتربتُ منها في بطء.. اقتربت مني.. تلاقت شفاهنا.. التحمت جيوش أنفاسنا.. انقضننا على بعضنا من غير ميعاد.. اخترقتُ حصونها كفارس مغوار لا يكف عن دق أعناق خصومه.. اكتشفتُ جسدي لأول مرة

وساعدتني هي على ذلك ببراعة.. عيناها تسلب لبّي.. اشتد وطيس المعركة أكثر وأكثر.. تعالت أنّاتها حتى عم السكون وسالت دماء العشق داخلها.. همست بصوت يملؤه الغنج:

- هيبنوس!

-١٧-

هونـــــوريـــــا

صدرت الأوامر بغتة إلى عموم الجيش الهونيّ من قائدهم أتيلا بجمع الحشود والتوجه نحو القوط الغربيين في بلاد الغال.. لم يشترك كعادته في مناقشتي واستشارتي بل إنه أرسل إليّ بورقة برديّ مع رسول في القسطنطينية بها جملة واحدة:

- سنهاجم بلاد الغال توغلًا نحو روما الغربية.. أحضر من معك وقابل الجيوش عند الدانوب.

انطلقتُ منزعجًا نحو الدانوب ولكنني لم أغادر من دون هونوريا الحسناء السمراء الفاتنة بعدما اتفقت معي على الفرار من حراسة أخيها البغيض لها في المنفى.. قابلتني عند الباب الذهبي للقسطنطينية وقفزت ورائي على الجواد.. لم يستطع الحراس التصرف أو منعها فهي في صحبة السيد صاد كبير جيوش الهون.. لن يجرؤوا على اعتراضه.

احتضنتني من الخلف لتشعرني بدفء مشاعرها تجاهي.. ابتسمتُ محلقًا في سماء العشق المباغت.

- أعشق لمستك يا هونوريا.

- لمستي أم ضغطة نهديّ على ظهرك!

ضحكنا.. همستُ لها:

- وقحة.

- أحبُّك.

- لن أحاسبك على الماضي يا هونوريا ولكن لا تكذبي عليَّ أبدًا.

- أنا أحبُّك حقًا يا صاد.

- أخبريني.. لماذا كنتِ تنظرين إلى الشمس حينما رأيتك أول مرة.

- سأفصح لك عن سر.. أنا أعيش في خلودٍ شمسيّ.

توقفتُ حينها بالجواد برهة.. تنهدتُ..

- وأنا كذلك.. هكذا لن نموت أبدًا.. أليس كذلك؟

- أهذا يُضايقك؟

- لا أعرف.. الناس يموتون كل يوم.. لا أعرف إن كان خلودي يمنحني سعادة حقًا أو تعاسة ولكن بعد وجودك في جواري سيختلف الأمر.

- سعادة طبعًا.. سعادة.. أنا في غاية السعادة لمعرفة أن من

اختاره قلبي يعيش في خلودٍ شمسيّ مثلي.

احتضنتني بشدة.. ضحكنا.. واستكملتُ طريقي.. اعتقدتُ أنني الوحيد في هذا العالم الذي يعيش في خلودٍ شمسيّ بالإضافة إلى أتيلا منذ أن عثر عليّ.. ولكن يبدو أن هناك آخرين.. همستُ لها:

- من هو هيبنوس يا هونوريا؟

- من؟

- اعتقدتُ أنك نطقتِ باسمه وأنتِ في غاية نشوتك معي.

- كلا.. ربما اختلط عليك الأمر.

- حسنًا.

انطلقتُ.. تذكرتُ أتيلا.. أكثر ما يثير غضبي هو تلك التصرفات الحمقاء التي يُقدم عليها أتيلا في الفترة الأخيرة.. لا طاقة لنا في هذه المرحلة بقتال روما الغربية.. هو يدرك ذلك جيدًا.. مؤكد أنه اتخذ قراره هذا تحت تأثير الخمر.. لعلي أتمكن من إقناعه بالعودة عن هذه المجازفة.. ما زال أمام الهون الكثير والكثير حتى يواجهوا القوى العظمى صراحةً.. أسرعتُ بجيشي نحو نهر الدانوب ولكنني تأخرتُ عن الحشد المهول مسافة يومين.. اللعنة! لقد تأخر عني رسول أتيلا

حتى سلمني الرسالة.

أخبرني أحد الجنود الذين ينتظرونني بأمر من أتيلا ليرشدوني إلى الطريق.

- سيدي صاد.. مولانا أتيلا المعظَّم يقود الجيش نحو سهول كتالونيا بعد أن عبر الراين.. هلمَّ لنلحق به.

اخترقنا السهوب والبراري أيامًا وأيامًا حتى اقتربنا من سهول كتالونيا.. لاح ضباب كثيف عن بعد يحجب الرؤية فوق هذه الرقعة الخضراء الشاسعة.. توقفتُ وجيشي المكون من الآلاف عند هضبة عالية تخفي ما وراءها.. صوت طبول يتسلل إلى مسامعنا.. نظرتُ إلى هونوريا:

- فلتبقي أنتِ هنا.. لا تتحركي بعيدًا عن هذه الشجرة.

احتضنتني هونوريا وقبّلتني.. ضممتها إلى صدري بحنان قبل أن أفارقها وأمتطي جوادي رافعًا سيفي.. في عيونها حديث لم تفصح عنه بعد.. ربما الزمن كفيل باعترافها به.

نزلنا بصيحاتنا المعتادة نحو ميدان المعركة.. ضباب كثيف يخفي ما بداخله.. اقتحمنا السهول.. برقت عيناي.. آلاف من جثث الهون تظهر.. دماؤهم تخضب الأرض لتصنع بركة من الدماء المختلطة.. سيوفهم ملقاة ملطخة بالدماء.

- أين أتيلا؟

همستُ بها في غضب شديد.. صحتُ عاليًا:

- أتيلا.. أتيلا.

أنصتُّ إلى الطبول.. نظرتُ إلى مصدر صوتها.. اقتربتُ مخترقًا الضباب حتى رأيتهم بالكاد كأشباح يبتلع الضباب أغلبهم.. جنود من القوط الغربيين وأعوانهم الرومان يقفون على الجانب الآخر من السهول يضربون الطبول.. وتُعلن أبواقهم النصر المبين.. أرى سيوفهم تضوي في السماء.

- لقد تأخرنا يا سيدي.. لنفر قبل أن يلحقوا بنا الأذى.

قالها زيركون بعد أن رفض العودة إلى عاصمة الهون من دون صاد.. من دوني.

- لنفر يا بني.

اغرورقت عينا زيركون بالدموع.. هطلت الأمطار بغتة لتغتال ضبابهم.. وقفنا للحظات في غابة الجثث على مدى البصر من الهون.. ظهر العدو واضحًا جليًا.. صحتُ في غضب شديد ورفعتُ سيفي واتجهتُ ناحية جيش روما الغربية متجاهلًا صيحات زيركون:

- كلا.. لا تلقِ بنفسك في التهلكة يا سيدي.. عد يا صاد.. عد.

اخترقتُ حشود الأعداء مجتزًا بسيفي رقابهم في طريقي تحت السماء الغاضبة.. برق ورعد وأمطار غزيرة.. انتشر الهرج والمرج المباغت من قابض الأرواح الذي ظهر في صفوفهم فجأة.. اختل نظامهم.. اختطفتْ بسيفي البتَّار أرواح المئات قبل أن يعرفني أحد قادة الجيش عن قرب.. لقد قابلته فيما سبق في المعاهدة التي أُبرمت بين الهون وروما الغربية لمحاربة القوط فيما مضى.. همس:

- إنه السيد صاد.

صاح بالجنود:

- لا تقتلوه.. أريده حيًا.

استعاد الجنود توازنهم وألقوا عليَّ شباكًا تشبه الوهق المستخدمة في صيد الحيوانات المفترسة.. كنتُ كالثور الهائج بعد أن وقعتُ من فوق جوادي محاولًا التخلص من ذلك الوهق من دون جدوى.. تلقيتُ ضربة على رأسي بظهر سيف ذلك القائد الشاب فغبتُ عن الوعي لأول مرة منذ ولادتي.

-١٨-

الخـــزر

(بعد عدة شهور)

فتحتُ عينيَّ لأجد نفسي ممددًا فوق فراش جوانبه من الخشب المزخرف ويحيط بي ستارة مغزولة من الحرير الرقيق.. أزلتها واعتدلتُ جالسًا مقاومًا ذلك الألم المُبرح الذي اجتاح رأسي.

غرفة واسعة من الخشب بها عدد من التماثيل الشامانيَّة وكوَّة جانبية تطل على حديقة.. غراب أبقع يقف على حافة النافذة وينظر لي صامتًا ثم ينعق قليلًا قبل أن يطير مختفيًا.. نهضتُ.. لاحظتُ زيركون النائم على الجانب الآخر خارج الفراش على كرسي خشبي.. ناديته:

- زيركون! زيركون!

فتح زيركون عينيه ثم نهض فرحًا لرؤيتي واقفًا أمامه:

- السيد صاد! حقًا أنت تقف أمامي؟

- ما الذي حدث؟ آخر ما أتذكره ذلك الوهق الذي...

- اجلس يا سيدي وارتاح.

نهض وصب لي كوبًا من القمز وناولني إياه.. رشفتُ منه ثم نظرتُ لزيركون:

- أين نحن؟

- في بلنجر.

- بلنجر.. عاصمة الخزر.

- نعم.

- لكن!

- اتخذك الرومان أسيرًا حتى دفع أتيلا عشرة آلاف رطلٍ من الذهب ليفتديك.

- أوغاد!

- استغلوا مكانتك لدينا ولدى أتيلا بالخصوص.

- ولكن لماذا نحن هنا؟ أين أتيلا؟

اقترب مني مربتًا على قدمي:

- أتيلا طريح الفراش منذ فترة.. لا يغادر قصره بعد هذه الهزيمة النكراء.. بيد أن الأمور كلها تؤول في يد إيلاك وباقي أولاده الأربعة.. إنهم يتصارعون بدموية منقطعة النظير على الحكم.. ولكل منهم عصبة تحارب بعضها.. لقد تمزقت بلاد

الهون إلى خمس مقاطعات.. سيطر إيلاك على المقاطعة الأكبر منها المحتوية على العاصمة واحتجز أتيلا المريض عنده.. وآخر ما فعله أتيلا هو افتداؤك من يد الرومان وإرسالك إلى هنا في حراسة سريَّة بالتنسيق مع خاقان الخزر.

- أكنت...

- فاقدًا للوعي لثلاثة شهور وكأنك في عداد الأموات.. لقد حملوك في هودج من الروم إلى الخزر وما إن عرف إيلاك بهذا حتى أقسم على النيل منك وقتلك والشرب من دمائك وصلبك.

- ولماذا لم يهاجم إيلاك الخزر لينال مني؟

- شيء عجيب.. طلب رسمي من روما الغربية بتركك على قيد الحياة وإلا هاجموا الهون في عقر دارهم.

برقت عيناي متذكرًا حبيبتي هونوريا.. همستُ لزيركون:

- هونوريا.. هونوريا يا زيركون.. أين هي؟

- لقد سلَّمت نفسها لأخيها الإمبراطور وتزوجت ممن اختاره لها مقابل أن يتعهد الإمبراطور بحماية حياتك.. ولذلك عجز إيلاك عن الفتك بك.. لقد تصادم معه بعض الهونيين ثائرين

حينما حاول السخرية منك أمامهم ووصف نفسه بالقائد الجديد.. تعالت هتافاتهم في وجهه البغيض..

فأنزل فيهم عقابه بالجلد بسياط جنوده.. قتل بعضهم وحظر عليهم سيرتك.

- الوغد أسود الوجه!

أشعر بأنني أختنق.. بثُّ مطاردًا أعزل لا حيلة لي.

خرجتُ من غرفتي بغتة وترجَّلتُ إلى الحديقة الخارجية بعدما انحنى لي الجنود الموكلين بحراستي وصحبني زيركون.. ترجلنا إلى خارج القصر عبر باحته لتظهر خارج أبوابه مدينة الخزر وبحره على مدى البصر.. نظرتُ ناحية الشمس متأملًا في غضب مكتوم:

- ما فائدة الخلود إذًا؟

- لا أحد غيرك يمكنه فتح عينيه هكذا ناظرًا للشمس.

- أتيلا ينظر مثلي في الشمس.

- مؤخرًا.. بركة منك.

تنهدتُ وأردفتُ هامسًا شاردًا من دون أن يسمعني زيركون:

- لا يمكن أن يموت أتيلا.. هو في خلودٍ شمسيّ.

- نعم.. ماذا تقول أيها القائد؟

- لا عليك يا زيركون.. علينا إنقاذ الهون.

- سأنفذ أوامرك مهما كانت.

- لقد أصبح الهون عملة لا يعترف بها العالم.. الكل يكرههم.. ولذلك سنذوب.

- نذوب؟

- اسمعني جيدًا يا زيركون.

مرت الأيام والشهور ذات النهار الواحد تحت نفس الشمس في قصر الخاقان الذي أحسن استقبالي.. لقد رد لي الجميل.. فلا أحد يعلم أنني رحمته من الإعدام بعدما أبعدته عن قضية هدايا البيزنطيين وجعلته يخترع قصة إبلاغه عنهم وذلك لم يحدث في الحقيقة.. وكأنني استشرفتُ المستقبل القريب.. ربما لإعجابي بأرض الخزر.. حفلات يومية على شرفي ورقص وأطعم المأكولات وأشهاها.. فتيات جميلات يقفن على حافة فراشي كل ليلة وأصرفهم؛ فلم يعد في قلبي مكانٌ لغير هونوريا التي ملكت قلبي.. كم أتمنى لو أنني أصاحبها بمفردنا في مكان لا يسكنه غيرنا حتى وإن كان في

نهاية ذلك العالم!

يومًا ما سأهزم روما الغربية وأسترد معشوقتي.. يومًا ما سأسود العالم.. وضعت خطة مُحكمة وشرعتُ في تنفيذها بدقة.. كان زيركون ذلك المهرج المعروف في كل بلاد الهون ضلعًا رئيسيًا في هذه الخطة.. السهل التنقل في بلاد الهون طبقًا لوظيفته.. حمل رسالة شفهية لكل من يحبون السيد صاد ويبجلونه.. الأتباع.. هكذا أطلقتُ عليهم.

(السيد صاد ينتظركم في بلاد الخزر).

في ليلة واحدة من ليالي البشر خرج الهونيون المحبون لي والشامان تاركين وراءهم بيوتهم وخرافهم وأبقارهم.. خرجوا بصناديق من الأموال التي ادخروها لتحميهم من غدر الزمان.. أكثر من مائتي ألف من الهونيين رجالًا ونساءً وأطفالًا يعبرون طريق بحر الخزر الجديد شرق جبال القوقاز في غفلة من إيلاك وإخوته المتناحرين.. من اكتشفوا رحيلهم في الصباح ولكنهم لم يتتبعوهم بل هاجموا بيوتهم ونحروا أنعامهم في اليوم الثاني واعتبروها غنيمة لهم.. بينما غرق باقي الهونيين في بحور التناحر والصراع وكأنها حرب أهلية غير مسبوقة.

وصل المهاجرون في فجر يوم جديد يقودهم الشامان الأكبر وزيركون فوق جواديهما..

وقفتُ في استقبالهم بجوار الخاقان.. تقدم زيركون الحشود.

الدموع تملأ عيني زيركون.. قبَّل الشامان الأكبر يدي وانحنى لي.. انتظرتُ أن ينطق زيركون بما يوحي به ذلك المشهد العجيب.. نظرتُ إلى وجوه الهونيين.. لقد قطعوا شعورهم رجالًا ونساءً.. تلك علامة الحزن والرثاء.. انخرطوا في بكاء جماعي.. عدتُ ببصري إلى زيركون الذي ارتمى في أحضاني:

- لقد مات أتيلا.. لقد خرج الدم من حلقه مخمورًا.

-١٩-

شعـــاب مكـــة

بيت الإسكافي غالب

(أثناء غياب السيد صاد عن الوعي بعد أسره في أوروبا الغربية)–(حلم السيد سين)،

استقر غالب ابن أوخوس الهارب من نيران الفرس إلى جحيم الروم، ومنهما إلى صحراء العرب ليعيش مع ابنه المتبقي له (سين) في منتصف شعاب مكة بالقرب من البيت الحرام.

لم يتسلل النوم أبدًا لعيني غالب ولا لطفله سين حتى بعد أن شب وصار يافعًا.. أنا السيد سين بن غالب.. تفتحت مداركي على أبٍ يخبرني بأننا سنعيش أبد الدهر في نهار واحد.. وشدَّد عليَّ ألا أخبر أحدًا بذلك الخلود أبدًا.. وألا أُفصح لأحد بأننا نعيش تحت شمس لا تغيب.. كنا نقيس غروب شمس الغير بسكون حركتهم وحملهم المشاعل التي لا تظهر إلا أثناء ليلهم.

مكة.. مدينة مباركة تخضع لحكم الفرس.. يحج إليها العرب من مختلف البلاد إيمانًا منهم أنها شريعة من شرائع ربهم

ورب إبراهيم نبيهم في الزمن البعيد.

جلس غالب في باحة بيته الخارجي تحت سقف من الخوص وجريد النخل يضرب بمطرقته الحديدية على جلد يُحكم لصقه على نعل صنعه خصيصًا ليتحمل الطبيعة الصحراوية في مكة.

الغرانيق العربية تبدو في الأفق بالقرب من البيت الحرام يتعبد عندها بعض المكيين.

الشمس في السماء لا تغادرها.. طقس متقلب؛ حارٌ تارة وشديد البرودة تارة أخرى.. كنتُ في جواره أساعده.. العرق يتصبب على جبينه وجبيني.. السيد سين.. الفتى الخجول المنعزل عن أقرانه ممن في نفس سنه بحكم والده الذي اختار له العزلة كخير صديق.

تنهد أبي ناظرًا إلى الأفق متذكرًا كل ما مررنا به:

- منذ أن جئنا من برية فاران ونحن لم نغادر مكة.

- أهذه البرية هي التي...

ابتسم غالب:

- رائع.. أنت تحفظ كل ما أقصه عليك..

نعم.. أول تاريخ هؤلاء القوم بدأ بالقرب من تلك البرية..

الكتب تقول إن نبيًّا اسمه إبراهيم الخليل رحل بزوجته هاجر وطفلها إسماعيل

عبر تلك البرية خلال جبال فاران واستقر بهما بالقرب من هنا.. وتفجرت بئر زمزم تحت قدمي الطفل الصغير ثم جاءت قبيلة جُرهُم واستقرت حول البئر وتناسلوا وبدأت مكة..

ذلك البيت الذي يطوفون حوله أعاد بناءه إبراهيم وإسماعيل.. فقد كان مهدومًا منذ فجر التاريخ.. يُقال إن أبا البشر قد بناه في نفس الموقع ولكنه تهدم مع الزمن.. وصار قبلة للعرب يحجون إليه كل عام فانتعشت التجارة والقوافل من كل البلدان العربية.. سموها الكعبة.

لكن قبيلة جرهم كانت فاسدة فدفنوا بئر زمزم وأكلوا مال الكعبة.. فقامت عليهم قبيلتا خزاعة وكنانة وحاربوهم وانتصروا ونفوهم من مكة.. ثم خضعت مكة لحكم خزاعة ثم قريش حتى وقتنا الحالي.. وكما قلت لك في السابق.. هذا البيت اكتسب قدسيّةً كبيرة بعد حادثة جيش الأفيال بقيادة أبرهة الحبشي.. من عاصرنا موتهم بطيور أرسلتها السماء بحجارة أصابتهم بمرض آكل للحومهم حتى ماتوا عن بكرة أبيهم.

- في أي عام نحن يا أبي؟

- لا يهم يا ولدي.. نحن نعيش في خلودٍ شمسي.. الدنيا بأكملها ستكون بمثابة يوم واحد لنا بل ونهار واحد حتى تقوم الساعة.

- أي ساعة؟

- حين يُحاسب العباد فإما جنة أو جحيم.. قرأت ذلك في ديانة إبراهيم.

- أنت واسع الاطلاع يا أبي.

- لا بد لك أنت أيضًا أن تقرأ حتى ترى الدنيا بعيون مفتوحة.. حتى ترى الحقيقة.

- كثيرًا ما تراودني حيرة نابعة من أولئك الذين نسمع بموتهم ونراهم حولنا يموتون يومًا بعد يوم.. هل نحن نختلف عنهم في الخِلقة.. أهم بشر ونحن لا؟

ضحك غالب.. ربت على كتفي:

- بشر يا بني.. ولكننا أُصبنا بسحر من كتاب هيبنوس.

- ولكنك فقدته في عرض البحر.

- لا أجد تفسيرًا لذلك غير الكتاب.

- غير صحيح.. فالعم سيجانوس كما قصصت لي حمل ذلك

الكتاب ومات محروقًا مع أنه عاش في ذلك الخلود الشمسيّ قبل أن يموت.

- لا أخفيك سرًا.. فكرت في منطقك مرارًا ولكنني لم أصل إلى تفسير واضح.. واستسلمت.

ساد بيننا الصمت في حين قطّب غالب جبينه والناس يترجلون حولنا نحو السوق القريب من البيت الحرام.. التساؤلات تفتك برأسه كل لحظة من دون إجابة.. نهضتُ ووقفتُ على ناصية البيت أنظر إلى تلك الغرانيق المنتشرة حولنا في كل مكان.. التفتُّ إلى والدي غالب وسألته:

- قلت لي إن هؤلاء القوم يعبدون رب إبراهيم.

- نعم.

- إذًا لماذا يقدسون تلك الغرانيق الصماء؟

- إنهم يشركون بربهم يا ولدي.. يضعون تلك الغرانيق وسطاء مقدّسين يتوددون إليهم من أجل الرب.

- ما قصتها؟

- تعال واجلس.. سأخبرك.

كان هناك رجل يدعى عمرو بن لُحيّ.. ذا مال جزيل ومعروف عنه فعل المعروف وبذل الصدقة وولاية البيت..

كان سيد مكة آنذاك.. خرج عمرو بن لحيّ في رحلة إلى الشام.. ورآهم يعبدون الغرانيق.. فسألهم:

- ماهده الغرانيق التي أراكم تعبدون؟

- هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا.

- ألا تعطوني منها صنمًا فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ ولعله يعيننا فنحن نحتاج للماء في مكة.

وعاد بأول صنم.. كان اسمه هُبَل.. ووضعه في جوف الكعبة وصاح في قومه:

- إنه تجسيد الرب في الأرض يا قوم.. فخروا له ساجدين.

- أحب حكاويك يا أبي.

ربت على قدمي مبتسمًا وأكمل عمله.

غراب أبقع يقف بالقرب من ناصيتنا وينظر ناحيتنا بشغف.. امتلأت السماء فجأة بسحب محتقنة حجبت شمسنا.. دقائق وهطلت الأمطار.

-٢٠-

عبـــد الـرب

(حلم السيد سين)

أمطار غزيرة.. نيران مشتعلة في خشب وحطب في باحة البيت.. جلست حولها مجموعة من الرجال من ضيوف أبي.. كانوا في البداية من زبائنه ثم تقربوا إليه وصاروا أصدقاءه يجالسونه ويجتمعون عنده في بيته، ومع ذلك حافظ غالب على عزلته المجتمعية فلم يعرف عنه أحد أكثر مما أراد هو.

جلسوا أمام الدواشن المعلقة على الحائط المكدَّسة بالكتب تحت الكوة التي تُدخل ضوء النهار بالنسبة لغالب، وضوء القمر بالنسبة إليهم.. مشاعل من الزيت معلقة على الحوائط.. انتهى غالب لتوه من قضاء حاجته في تلك الحفرة الكبيرة في فناء البيت وانضم إليهم لتناول الوليمة التي جهزها لهم.. غالب يملك من الأموال الكثير فقد ربح من مهنته مالًا وفيرًا وساعده على ذلك قدسيَّة الكعبة ورحلات الحج إليها.. قدور نحاسيَّة تحمل أطعمتهم المفضلة.. أمسك القصعة الخشبية وبدأ يوزع عليهم الطعام:

- هلموا.. واتركوا مكانًا للفالوذج.

- مرحى يا غالب! هل وصلت إلى الفالوذج؟

تلك الحلوى الفارسيَّة التي يصنعها غلمان من الفرس.

- فشلت زوجاتنا في تعلُّم طريقتها.. وأنت تطبخها بنفسك بمهارة.

- هذا سر المهنة.

تعالت ضحكاتهم وبدأوا في تناول الطعام وشرب الخمر.

وقتها كان يسمح لي أبي بالترجل في مكة والتأمل.. لكن محظورٌ عليَّ مصاحبة الأصدقاء والانخراط معهم في مجالسهم كما يفعل هو.. أقنعني أنه مجبر على ذلك حتى تزدهر تجارة الأحذية أما أنا فعليَّ أن أحافظ على عزلتي قدر المستطاع.. لم يعرف عني أحد غير أنني ابن الإسكافي الغامض.. والتزمت أنا بتلك المسافة بيني وبينهم.. بالأخص سر الخلود الشمسيّ.. لم أفصح به لأحد.. ليس فقط بسبب الالتزام بعهدي لوالدي بالكتمان.. ولكن لكون مثل هذه القصة ستصمني ووالدي بالجنون الحتميّ وربما يقذفوننا بالحجارة سخريةً منا.. فمن يصدق أن أحدًا من البشر يعيش أبدًا في شمس لا تغيب.

السكون يعم المكان.. انفضت الناس إلى بيوتها وقليل من يخرج منهم يحملون المشاعل.. إنه ليلهم ووسط نهاري..

ترجلت عند أحد الغرانيق ودققت النظر إليه.. ضحكت ساخرًا:

- كيف حالك أيها الحجر الأصم؟

صفعت وجهه الحجريّ بيدي.. بدوتُ كالمجنون.. لم يلاحظ أحد ذلك.. عدت إلى البيت ولكنني لم أدخل.. التففتُ وراءه لأقابل صديقي الوحيد.. من يعرف عني كل شيء.. من حفظ سري.. جوادي الحبيب.. فرس عربي أصيل ممشوق القوام.. الجواد عبد الرب.. هكذا سميته منذ أن اشتريته من سوق عكاظ منذ عدة سنوات.. ربت على ظهره واحتضنته:

- عمت مساءً يا عبد الرب؟

تأكدتُ أن مياه الأمطار لم تصل إليه تحت سقف من خشب الدوم وجريد النخل يمتد فوقنا في خلفية البيت.. أشعلتُ بعض الحطب وجالسته.. تنهدتُ:

- أتعلم يا صديقي أنني مُعذب؟ نعم.. تخيل أنني أعيش إلى الأبد هكذا وحيدًا.. الخلود الشمسيّ!

أخبرك سرًا.. هذا الخلود كاذب.. لقد مات العم سيجانوس وهو يتمتع بهذا الخلود..

لا تكن مثل أبي الذي يهرب من تلك الحقيقة.. سيأتي يومٌ

ينتهي فيه ذلك الخلود لسبب ما..

هذا الكتاب ملعون.. كتاب هيبنوس.. ترى ماذا كان يحوي في داخله؟ أطلاسم حقًا؟ أم ماذا؟

أمسكت ببعض من ورق البردي وأقلامٍ من الفحم صنعها لي والدي بعدما تعلمت الرسم على يديه.. يبدو أن جينات الرسم قد انتقلت من الجد أوخوس الذي رسم بيديه صورة لزوجته الأولى بجوار كلمات تصفها في كتابه يوميات أوخوس الذي حكى لي أبي عنه، ومنه إلى أبي غالب وارثًا نفس الموهبة فطالما رأيت وجوهًا من الماضي ينبض فيها قبس من الحياة على أوراق البردي معلقة في غرفته.. فهذا العم سيجانوس وهذه أمي فستال الساحرة الجمال وهذه جدتي وهذه ساحات روما وغيرها من اللوحات التي حرص غالب على الاحتفاظ بها بعيدًا عن جوقة أصدقائه المزيفين.. لم يرها غيري.

ذات يوم وقفت أمام صورة والدتي فستال مبتسمًا ثم التفتُّ إلى أبي:

- ألن تتزوج ثانية؟

- لن يشغل قلبي غيرها.

- للأبد يا أبي!

- للأبد.. مهما طال عمر الدنيا.

عشقت إخلاصه لها.. لطالما حكى لي عنها.. عن جمالها.. حبها له.. وقوفها إلى جواره.. كانت عظيمة.

زادت الأمطار عن الحد.. التفتُّ خلفي لأجد سيلًا عارمًا يقترب من البيوت في الشعاب.. كأنها أمواج بحر هائجة.. تسمرت في مكاني.. كل ما فعلته هو أنني مددت يدي لأفك قيود عبد الرب.. صفعتني تلك الأمواج المباغتة وفقدت توازني.. غطستُ تحت المياة في فوضى تتخبطني الحجارة وحوائط البيوت.. فتحتُ عينيّ لأرى عبد الرب يكافح تحت المياه فاقدًا السيطرة على نفسه.. وكأن الزمن توقف.. التقت عيناي مع عيني عبد الرب للحظة.. رأيت توسلاته تقفز من عينيه لأمد إليه يد الإنقاذ.. حجارة كبيرة اصطدمت برأسي.. أظلمت الدنيا لأول مرة.. غبت عن الوعي.

خلـــــود شمـــــسيّ

(حلم السيد سين)

فتحت عينيّ لأجد نفسي واقفًا في جوار أبي غالب في وسط الكعبة.. المياة تخضب قدميّ.. نظرت حولي متعجبًا.. لقد تهدمت الكعبة واجتمع القوم يعيدون بناءها.. همس أبي لي:

- تحرَّك يا بني.. علينا أن نشاركهم في بناء الكعبة.

- أبي! هل فقدت الوعي؟

- ألا تتذكر؟

قالها متوجسًا فأجبته في لهفة:

- أخبرني أرجوك.

نظر لي غالب بحيرة.. همس:

- اجتاح السيل البيوت وهدم جدران الكعبة ولكنه لم يستمر طويلًا.. بحثت عنك وسط الغارقين من القوم فلم أجدك.. كنت على يقين تام أنك لن تموت.. حتى عثرت عليك في مقابر القوم خارج مكة تدفن جوادك.

- عبد الرب!

امتلأت عيناي بالدموع.. ربت أبي على كتفي.

- مالك يا ولدي.. هل نسيت كل ذلك؟

الآن تذكرت.. لقد مات عبد الرب.. ربما صدمة الفراق أدخلتني في نوبة من نكران الواقع.. رفض عقلي تصديق موته بغتة.. كان صديقي الوحيد.. لن أنسى أنني لم أستطع إنقاذه.. لقد خذلته.. لقد فقدت الوعي وتركته يموت.. ولكن.. هل يعتبر ذلك نومًا؟ شعرت أن ثمة إنذار يرسله مجهول لي.. ليخبرني أن هذا الخلود كاذب.. أنت ككل البشر تنام وتفقد الوعي وربما تموت كما مات سيجانوس؟

- سين! سين!

ابتسمت لأبي وحاولت ألا أبث القلق في نفسه:

- كلا يا أبي تذكرت.. هلم نبني مع القوم.

حملت الحجارة وشاركتهم البناء حتى انتهينا.. اختلف القوم في شرف وضع الحجر الأسود.. يقولون إنه حجر من الجنة.. حتى خرج رجل ثلاثيني يشع النور من وجهه.. تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها.. خلع ثوبه وناول أطرافه إلى رؤساء القبائل ووضع الحجر الأسود فوقه حتى ينال شرف

حمله الجميع.. يا له من ذكي! همست لأبي:

- من هذا الرجل يا أبي؟

- إنه محمد بن عبد الله من قبيلة قريش.. يلقبونه بالصادق الأمين.

نظرت ناحيته وكأنني أنظر إلى الشمس.. هل يوجد بين البشر من يسطع كالشمس!

مرت الأيام ولا أحد يشغلني غيره.. تتبعت أخباره من بعيد.. زوج السيدة خديجة وعمه أبو طالب.. يعمل تاجرًا ويباشر القوافل التجارية الخاصة بزوجته.. سمعت عنه شيئًا أذهلني:

- إنه يذم تلك الغرانيق ويقول إن الله لا يحتاج إلى وسطاء ليدعوه عباده.

فكرت مرارًا وتكرارًا في الذهاب إليه والتحدث معه عما يجيش به صدري من تساؤلات.. ولكنني تراجعت.. تذكرت كلمات أبي التي حفرت في ذاكرتي:

- يا بني إن هذا المجتمع يعج بالظلم.. فالقوي يستعبد الضعيف والغني يستبد بالفقير.. عبودية ورق.. حروب وسلب وقتال.. في كل خطوة يخطوها الإنسان يخاف فيها على

حريته.. بغاء واستبضاع وزنى جماعي وفردي.. وأد بنات وقتل أولاد خشية الفقر.. أتعتقد في مجتمع كهذا يجوز لك أن تُفصح لأحد بأنك تعيش في خلود شمسي؟

مرت السنين ومجلس والدي لا ينفض.. اجتمع الأصدقاء على وليمة يتسامرون ويتضاحكون.. كنت جالسًا في خلفية البيت خلف الكوة أتذكر صديقي الراحل عبد الرب ويصلني حديثهم.. قال أحدهم في هيستريا من الضحك:

- أيختار الله نبيًا أميًّا من شعب أقرب إلى البداوة؟

- كان عليه أن يرسله في أمة متحضرة عرفت الفلسفة والمناقشات والمعارف والعلوم.

- ولكنه إن جاء من هؤلاء لكثر الجدل.

قالها أبو غالب.. جذبني الحديث بشدة.. أدركت أنهم يتحدثون عن محمد بن عبد الله.. لقد صدق حدسي.. فقد بدأ يدعو الناس سرًا لعبادة الله الواحد.. يخبرهم أنه مرسل من الله الخالق.. وعلى الرغم أنني لم أقابله للحين.. ولكنني أتوق للسماع منه.

- أتعني أننا لا نفهم ولن نجادله؟

- لا أقصد.. ثم إن هذا المنطق خاطئ.. فمن سبقوه من أنبياء لم يكونوا من الفلاسفة والعلماء.

- ليس هذا هو السبب لرفض رسالته.

- وما السبب إذًا؟

- لو أنه من سادة قريش لاتبعناه.

- إنه يجتمع بالناس في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي.

- لا بد أن تتدخل قريش وتمنعه.

- لا تبالِ به.. لن يتبعه أحد.

- غير صحيح.. لقد آمن به بنو عبد مناف، وبنو هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو عبد الدار، وبنو أسد، وبنو عدي، وبنو الحارس.

- أيحدثكم محمد بأخبار عاد وثمود وأنا أحسن حديثًا منه؟

هلموا لأحدثكم بأخبار رستم واسفنديار والأكاسرة من أروع منتجات الأدب الفارسي.

تعالت ضحكاتهم.. قطع حديثهم رجلٌ دخل لتوه يهرول:

- أتتسامرون هنا وقريش تنقلب رأسًا على عقب؟

- ماذا حدث؟

- لقد جهر محمد بدعواه بعدما كانت في السر.

همست وقلبي يرقص فرحًا:

- أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

كنت من أتباعه السريين.. تلك الكتب العديدة التي حرص أبي على جمعها من كل مكان أوصلتني لحقيقة واحدة.. هذا الكون له خالق واحد مبدع في نظامه.. أولئك الذين ينكرون وجوده من الفلاسفة والمفكرين كاذبين.. أو أن عقولهم لم تصل للنتيجة النهائية بعد.. الله الخالق القادر المالك لكل شيء في كل مكان.. فقط انزع غشاوة عقلك وانظر.. البحار.. الجبال.. الشمس والحياة في حد ذاتها والموت كلها تدل على الله.. لقد آمنت ووالدي بمحمد سرًا.. تنهدتُ سعيدًا بذلك الخبر.. الجهر بالدعوة.. لقد آن لدين الله أن يخرج عن صمته لينتشر في العالم أجمع.. وقف أحدهم يهلل:

- لن تهدأ قريش حتى تقضي على محمد ومن معه.. إن نجح في الهروب منهم فأين يذهب من الفرس والروم؟ هو هالك لا محالة.

أعلن المشركون أذاهم على المؤمنين.. أوكلوا الضرب والتعذيب لأتباع النبي محمد في الطرقات والأسواق.. لقد

ضربوا أبا بكر على وجهه حتى ظنوا أنه مات.. اشتد العذاب في كل مكان.. ومع ذلك لم يضعف النبي المُرسل أبدًا.. ذلك الرجل الساطع وجهه ظل يرسل ضياءه على كل أتباعه.. كان شمسنا الخالدة.. عشث وأتباعه في خلود شمسيّ من نوع آخر.. خلود حقيقي.. رجل واحد أراد له الله مُلك العالم.

أعلنتُ إسلامي وإيماني بمحمد في وجه أحد زبائن والدي فانهال بعصاه الغليظة فوق جسدي ضربًا، ولكن منعهم من التنكيل بي علنًا كون غالب من أعيان مكة.

اضطرب أبي أشد اضطراب.. ساوره الخوف والقلق.. دفعني للسفر إلى الحبشة مع الهجرة الأولى للمؤمنين بمحمد وبقي هو في مكة.. كلانا امتلأ صدره بنور الإيمان.. لم يعد يشغلنا الخلود في حقيقته ولكن يشغلنا معناه.. فربما بإيماننا ذلك نعيش في جنة عرضها السموات والأرض بلا نهاية حتى وإن هاجمنا الموت في الدنيا.. ذلك هو الخلود الحقيقي.

-٢٢-

سمنـــــدر-العاصمة الثانية للخـــــزر

(حلم السيد صاد)

اندمج الهون وذابوا في صفوف الخزر.. تزوجوا بناتهم وتصاهروا.. تمازجت دماؤهم حتى أصبح الخزريون والهونيون المهاجرون كيانًا واحدًا لا يمكن فصلهم.

توليتُ قيادة الجيش الخزريّ.. خاقان بك الخزر.. السيد صاد الخاقان بك الجديد.. غيَّرتُ الكثير والكثير من القوانين وسط رضوخ الخزريين.

انتقلت العاصمة إلى سمندر وبُنيت حولها الأسوار والحصون.

في قصري الخشبيّ الخاص في منتصف المدينة بين الورود والأشجار، جلستُ بمفردي أُفكر فوق عرشي الذهبيّ.. نظرتُ نحو الشمس المتسللة أشعتها القوية من النافذة الجانبية وتنهدتُ.. تساءلتُ:

- كيف يموت من هو في خلودٍ شمسيّ؟

آلمني موت أتيلا.. عَصَر قلبي.. كان حقًا بمثابة والدي

البشريّ.. لم أقتنع يومًا بأنني ابن الطير.. أي طيرٍ هذا الذي يمكنه مضاجعة امرأة؟

أصدرتُ مجموعة من القرارات التي دار بها منادي الخزر في كل المدن يهللون:

- أيها الناس.. لقد أصدر السيد صاد مجموعة من القرارات.. وعليكم اتباعها من دون تفكير:

أولًا: الخاقان بك هو الحاكم الفعلي للبلاد وفي يديه كل السلطة لاتخاذ أي قرارات بحكم منصبه.

ثانيًا: لقد ثبتت خيانة الشامان الأكبر واتصاله بأعدائنا ولذلك قررنا نفيه من البلاد وتؤول صلاحياته إلى الخاقان.

ثالثًا: إلغاء قانون موت من بلغوا الستين من عمرهم.

رابعًا: يُلغى قانون إعدام الخاقان بعد ٤٠ عامًا من الحكم، ويُستبدل بتنازل سلمي عن الحكم يضمن تداول السلطة بإشراف من الخاقان بك المسئول كليةً عن إدارة شئون الدولة والجوانب العسكرية.

خامسًا: الشامانية ليست الديانة الرسمية للخزر منذ اليوم وعلى الجميع إخفاء معتقداتهم الدينية وعدم الجهر بها ولكم كل الحرية في ذلك.

الخزر.. مُلك العالم.. السيد صاد

في مشهد مهيب عند خيمة الشامان الدينيّة اجتمع الناس يتهامسون.. وصلتُ على رأس موكبي والخاقان في جواري.. اخترق موكبهم حاملو الطبول على الجانبين.. تعالت دقاتهم..

هلل الناس فرحًا بمجرد رؤيتي.. ترجلتُ والخاقان ووقفنا عند صدر الخيمة.. أُقتلعتْ الخيمة من مكانها بيد الجنود وسويت بها الأرض.. ظهرت شجرة السندر.. بدأ الجنود في ضربها بفؤوس قوية.. ضربات حادة والناس مبرقة العينين.. أمسكتُ بنسرٍ جلبه لي أحد الحراس.. أخرجتُ سكينًا حادًا وذبحته.. أفرغتُ دمه في وعاء صغير.. صحتُ بالناس:

- هذا هو القربان من اليوم.. أما هذه الشجرة فلا تصلها الأصوات من فوق شجرة العالم.

بل لا وجود لهذه الشجرة أبدًا.

سقطت حينها الشجرة ووقعت وسط الناس الذين هرعوا لتفادي سقوطها.

غربان تلوح في الأفق بنعيقها المنتظم.. نظرتُ ناحية الشمس وتنهدتُ.

تغيّر الناس في سمندر على الساحل الغربي لبحر الخزر

بل في كل المدن التابعة للخزر.. من متواكلين خاملين إلى محاربين نشطاء.. عقدتُ لهم معسكراتٍ للتدريب الحربيّ.. تعلموا على يد الهون كل فنون القتال.. حتى صاروا نسخة طبق الأصل منهم.. شعر الجميع بالحرية في كل شيء.. زاد الاهتمام بالزراعة وانتشرت بساتين الفاكهة والحدائق في أنحاء العاصمة.. صنعوا من العنب النبيذ القوقازي وصدَّروه بقوافلهم.. صار المصدر الرئيسي للخزانة الملكية هي التجارة الخارجية في قوافل بين آسيا الوسطى وبيزنطة وبلاد فارس.. نعموا بأموال وفيرة وزعتها عليهم بالعدل.. أحبوني.. وصرتُ قائدهم وزعيمهم الأوحد.. واستويتُ على عرش من ذهب وفي جواري الخاقان.

في غضون سنوات تمزقت الهون من جراء الحروب الأهلية ومات إيلاك مقتولًا وتشرد إخوته.. واختفى مُلك الهون إلى الأبد.. لم يتوقع أحد أن الهون قد ذابوا في قالب آخر وأنهم على وشك الظهور من جديد في ثوب مغاير.. ثوب الخزر.. أولئك الوارثين لبعض مدن الهون شمال القوقاز البانين للحصون العتيدة حولها.. من يتحركون بدهاء منقطع النظير وقد اعتقد الغرب بعدم وجود منافس شرقي جديد.. الخزر.

على فراش الموت استلقى زيركون ذلك العجوز الذي قد تجاوز السبعين من عمره.. جلس في جواري أربتُ على رأسه

بابتسامة حنونة:

- ستتركني يا زيركون؟

- لا أعيش في خلود شمسيّ مثلك.

- من يدري.. ربما سيأتي الوقت لينتهي خلودي كما حدث مع أتيلا وألحق بك.

- كلا ستعيش إلى الأبد شابًا قويًا.. لكن هل يمكن لذلك الشاب أن يمنحني القليل من العمر؟

- مرحى أيها العجوز! لولا ذلك الشاب لكنت مقتولًا في سن الستين.

- لن أنسى لك هذا أبدًا.

- لقد اضطهدت الشامانية من أجلك.

تحشرج صوته متألمًا:

- أما زلت لا تؤمن بالرب الجالس فوق شجرة العالم؟ وتلك الأصوات القادمة من السماء؟

تنهدت:

- لا أؤمن بغير القوة.

- استمع إلى نصيحتي الأخيرة يا بني.. نصيحة من قزم

سافر وارتحل في كل الدنيا..

لا يهم إن كنت في خلود شمسيّ أو خلود كاذب..المهم أنك على قيد الحياة.. استمتع بهذه الدنيا الجميلة.. ضاجعها كامرأة ساحرة وخذ كل حلاوتها وابتعد عن مرها قدر المستطاع.. خذ طريقك إلى حكم العالم.. فإن حكمت ستنعم وإن لم يحدث يكفيك شرف الطريق.

قبّلتُ جبينه وساد الصمت بيننا.. كأن الكلام قد انقرض.

رحل زيركون في اليوم التالي.. شُيعت له جنازة مهيبة ودُفن كالملوك.

شيدتُ له مبنى عظيمًا فيه عشرون غرفة مغطاة بالقار ويجري تحته نهر كبير حتى لا تصل إلى القبر الأرواح النجسة.. حجرات مكسوة بالقماش ويتخلله نسيج من خيوط الذهب.. مقبرة عظيمة لا تقل عن مقبرة الملوك.

وقفتُ فوق مقبرته بعدما انصرف الناس والخاقان واختفوا على مدى البصر بمفردي.. سالت دموعي لأول مرة.. اكتشفتُ حبي الشديد لزيركون.. ربما كان صديقي الوحيد.. ربما أحببته أكثر من أتيلا.. كل ما أعرفه أنني في حاجة إلى البكاء.. سالت دموعي ناظرًا ناحية الشمس وغراب أبقع ينعق فوق المقبرة متذكرًا آخر كلماته لي:

- استمتع بهذه الدنيا الجميلة.. خذ طريقك إلى حكم العالم.. فإن حكمت ستنعم وإن لم يحدث يكفيك شرف الطريق.

همستُ فوق قبره كأنه يسمعني للمرة الأخيرة:

- إن كان لهذا الكون ربٌّ فليمنعني من سيادة العالم يا زيركون.

-٢٣-

الحبشـــة

(حلم السيد سين)

جلستُ على حافة شاطيء النهر في الحبشة أمام منزلي الجديد.. فبعدما هاجرت إلى هنا بإلحاح من أبي غالب، منحنا النجاشي بيوتًا جميعها تطل على النهر.. في هذا البيت الصغير عشتُ وأحببتُ وتزوجتُ فتاة ساحرة الجمال تُدعى (غزل).. الفتاة ذات الأصول الرومانية المسلمة.. من استقر جدها في اليمن ورحل أبوها بها إلى الحبشة.

تنهدتُ، نظرتُ إلى الشمس متسائلًا:

- كم شمسًا في هذا الكون؟

يد ناعمة تربت على كتفي.. التفتُ.. لأرى وجه محبوبتي.. همستُ مبتسمًا:

- غزل!

جلست في جواري.. حول معصمها ذلك السوار الذي أهداها لها والدها.. سوار فضي جميل.. ابتسمت غزل وهي تدرك ما لا أدركه.. إنها وسن.. ولكنني لا أعرف غير أنها غزل زوجتي

ولا أتذكر غير أنني السيد سين بن غالب.. سألتني:

- فيمن تفكر؟

- لا شيء.. فقط شردتُ في الماضي.

- أتفكر في والدك؟

- نعم.

- أتريد أن تراه؟

نظرتُ لها متعجبًا.. ابتسمت:

- أغمض عينيك.. أغمضهما.

فعلت ذلك.. اقتربت من أذني تهمس:

- الأحباء يعيشون دومًا في الذاكرة.. فتش عنه.. ستراه.. اقترب منه.. تفرّس في وجهه.. مد يدك وتحسس ملامحه.. سلط النور في عقلك عليه.. هل رأيته؟

- نعم.

- لا تفتح عينيك حتى تكتفي.

ساد الصمت حولنا.. لا صوت غير عجيج مياة النهر.. اقترب من أبي غالب في دروب ذاكرتي.. احتضنه بقوة.. لا أدرى كم مضى من الوقت على هذه الحال.. ربما يوم أو بعض يوم.

ارتديتُ ملابسي وأمنتُ على سيفي ودرعي الجلديّ.. استعدادًا لغزوة جديدة.. لقد كنت من فرسان الجيش الإسلامي في كثير من الغزوات.. فعمري بالتقدير الأرضيّ قد وصل إلى ستمائة وخمسين سنة.. مع أنني لم أتخط الأربعين من العمر شكلًا ومضمونًا.. عشتُ في مكة مائة وخمسين سنة ثابتًا في عمر العشرين.. لم يلحظ الناس ذلك ربما لتتابع الأجيال وعزلتي عنهم.. حتى والدي كان في عمر الخمسين حينما دخل في الخلود الشمسيّ.. بعد أن تزوجت في الحبشة خرجت إلى يسرب وانضممت إلى جيش المسلمين.. حاربتُ خلف لواء رسول الله.. وأبي بكر الصديق من بعده وعمر بن الخطاب والآن أحارب خلف لواء عثمان بن عفان.. لم أتحدث عن قصة الخلود الشمسيّ مع أحد كما وعدتُ والدي.. ربما لأن قلبي تعلق بالإسلام وباتت تلك القصة القديمة لا تهمني كثيرًا.. رأيتُ الموت مرات ومرات ولكن سيوفه كانت تخطئني دومًا.. لأعود إلى حبيبتي غزل هنا على ضفاف النهر.. لم يشأ الله لنا أن ننجب أطفالًا حتى اللحظة.. ورضيتُ بقضائه.. كانت غزل العالم بالنسبة لي.. كفتني عن الدنيا وما فيها.

ساعدتني غزل في ارتداء درعي الجلديّ.. قبّلتني في خدي

مبتسمة:

- ستعود لي.

- إن أراد الله لنا اللقاء.

- إلى أين هذه المرة؟

- إلى بلاد الخزر.

- الخزر؟

- نعم بلاد تقع في إقليم القوقاز.. شمال بلاد الشام.

- إنه سفر بعيد.. نحن في أقصى الجنوب.

- تعلمين أنني لا أبالي بالمسافات في رحلة أخرجها لنشر دين الله.

- ما ديانتهم؟

- وثنيون.. بعضهم يدين بالشامانية والبعض يعبد الغرانيق والحيوانات المفترسة.

- أي أنهم قوم عقولهم كالطير.. لا أفهم كيف يقتنع العقل البشري بهذه الديانات الواهية.

- المسألة في القلوب يا حبيبتي.. حمدًا لله أن شرح قلوبنا لدينه الحق.

- ستغلبون.

- لا تستهيني بالأعداء فهم قوم جبارون.. نجحوا في بناء إمبراطورية تضاهي الروم.

- ستغلبون.

ودعتني عند باب بيتنا.. امتطيث جوادي وابتسمت لها.. ابتعدت لأبدأ رحلة جديدة تحت نفس الشمس.

ممر باب الأبواب – بحر الخزر

عشرون عامًا من هجرة الرسول محمد إلى يثرب فتح فيها العرب بلاد فارس والشام والعراق ومصر.. امتدت الإمبراطورية الإسلامية الجديدة تحت حكم الخلفاء الراشدين لتجتذب أنظار أباطرة العالم خوفًا ورعبًا من أولئك المحاربين الأشدَّاء.. المدعومين بملائكة من السماء تحارب معهم وتنتصر لهم.. هجم الجيش الإسلامي في عدد مهول اقترب من مائة ألف مقاتل وكنت في مقدمتهم شاهرًا سيفي مرددًا الصيحات معهم:

- لا إله إلا الله!

- الله أكبر!

الأعلام الخضراء المكتوب عليها «لا إله إلا الله» ترفرف حولنا في كل مكان.. سقطت المدن واحدة تلو الأخرى جنوب القوقاز.. العجيب أنه لم يقابلنا أي من جيش الخزر حتى اللحظة.

توقفت الجيوش الإسلامية وعُقد اجتماع عاجل وبعثوا برسالة إلى الخليفة عثمان بن عفان.. وعسكرنا جنوب القوقاز

في بلنجر.. لم نقتل الناس ولم نحرقهم.. بل حاولنا أن نشرح لهم الدين الإسلامي في جماعات في الأسواق والباحات.. كنت أرى شغفًا في عيونهم إلى المعرفة.. ولكنهم خائفون.. ربما من حاكم الخزر وسلطته.. الخاقان بك.. لا أحد يعرف منا من هو ملك الخزر.. إنه يبتعد دومًا عن الأنظار.. حتى رسائله إلى البلاد الآخرى كان يوقع تحتها بـ«الخاقان بك» فقط من دون اسم.. أولئك من عقدوا حلفًا عسكريًّا مع هرقل ملك الروم وزودوا جيشه بأربعين ألف مقاتل في حروب الروم وفارس.. ربما كانوا سببًا في هزيمة الفرس كما أُشيع ولكنني أرى سببًا آخر.. فقد قامت ثورة على كسرى وقُتل ابنه ومات هو بعده بشهور وتولى الحكم طفلٌ؛ فكان من السهل بعدها أن تسود الفوضى وتنهزم الفرس إلى الأبد لتصبح عبرة لكل جبار في الأرض، فلم يكن هناك مثل الفرس وعظمة إمبراطوريتهم غير الروم وها هي قد انقسمت وأعتقد أنها ستواجه نفس المصير يومًا ما.

جاء الإذن باقتحام شمال القوقاز.. ولكن الأزمة تكمن في المانع الجبلي العتيد.. لا مكان للمرور غير ذلك الممر الجانبي عند بحر الخزر.. ممر باب الأبواب.. انتظمت صفوفنا وبدأنا في الهجوم متوجسين.. صدق حدسي.. كان في انتظارنا أعدادٌ مهولة على مدى البصر من الجيش الخزريّ.. ربما اقترب عددهم من خمسمائة ألف مقاتل.. تعالت صيحاتهم

وامتزجت بصيحاتنا.. والتحم الجمعان.. رأيت خلف صفوفهم الأولى آلة لإطلاق الحجارة تدعى المرجام.. كانوا يرموننا بالحجارة لمسافات طويلة فتصيب حجارتهم جنودنا في مقتل.. بل واستخدموا آلة أخرى لرمي قذائف أراها لأول مرة.. تنفجر وسط جنودنا.. يسمونها المنجنيق.. القتلى يزدادون من حولي.. أحاول أن أحصد بسيفي أكبر قدر من رقاب الأعداء ولكنهم يتكاثرون.. بتنا فريسة تستوجب الانسحاب قبل أن تقع الكارثة ويفنى الجيش.. بين صليل السيوف وشظايا قذائفهم رأيت شيئًا برقت له عيناي.. تداعت ذكرياتي كلها في آن واحد.. تذكرت كلمات أبي:

- إن لك أخًا خطفه الطير من أجل الشيطان.. يومًا ما ستتقاتلان.. سينتصر من يغزو مدن الأحلام.

لم أفهم إلى الآن ما هي تلك المدن؟ ربما يذهب إليها الناس عندما ينامون.. لكنني لم أنم ولو مرة واحدة في حياتي ماعدا تلك الفترة التي غبث فيها عن الوعي.. لا أتذكر أي مدن للأحلام.. حتى الناس جميعهم لا يتذكرون تلك الأحلام.. غير تلك البلورة السحرية الوارد ذكرها في كتب التاريخ التي امتلكها الملوك الكبار.. أقوال متناثرة أنها كانت تعرض لهم أحلامهم بعد استيقاظهم من النوم ومع ذلك لا دليل على وجودها.. جحظت عيناي.. إنه يشبهني حد التطابق ويتصدر

صفوف الخزر.

- يا الله! إنه أخي!

لم أدرك في هذه اللحظات أن الحلمين يمتزجان.. يتقابلان وجهًا لوجه.. داخل الحلم الورديّ.. صوت يهمس قادمًا من الشمس:

- هيبنوس!

كلانا ينظر تجاه الشمس ونستمع إلى ذلك الصوت.. رآني هو الآخر.. توقف عن القتال.. توقفتُ.. اقتربنا من بعضنا وسط الرؤوس المتطايرة.. وتحت شمس لا تغيب.. كان اللقاء الأول.. سين وصاد.. أخوان فرقهما القدر..

نفسي تحدثني بحنين جارف يجرجرني لأحضان عدوي.. هل سأقتله؟ مُحال.. إن بسط يده إليّ ليقتلني فلست أنا بقاتله.. قابيل وهابيل جديدان!

ضربتان حادتان على رأسينا في آن واحد.. سقطنا من فوق جيادنا.. نظرنا إلى بعضنا البعض.. مددتُ يدي لأمسك يده الملطخة بالدماء فأبعدها.. صهوات الجياد والصيحات تصم الآذان.. غبار كثيف تنعدم معه الرؤية.. غبت عن الوعي وأنا أجزم بالنهاية.. نهاية قصة التوأمين والخلود الشمسيّ.. ظلام دامس.

سـوار فضـيّ

فتحت عينيّ.. أرى بلورة زجاجية أمامي.. نظرتُ حولي متفقدًا المكان.. صحراء شاسعة على مدى البصر خالية من البشر.. لا شيء غير الشمس في منتصف السماء.. نظرتُ إليها بعيون مفتوحة.. عدتُ لأنظر في تلك البلورة الزجاجيّة.. رأيتُ نفسي داخلها اثنين واقفين أمام بعضهما تفصلهما مرآة طولية بحجم الكون.. سين وصاد.. نصفا العالم.. على الجانب الأيمن سين وحوله عدد لا نهائي من الأطفال بيض الوجوه يرتدون زيًّا أبيض موحدًا.. وعلى الجانب الأيسر صاد وحوله عدد لا نهائي من الرجال العجائز الممتلئة وجوههم بالتجاعيد مرتدين زيًّا أسود موحدًا.. كنتُ أنا الاثنين.. نرى بعضنا البعض.. توأمان طبق الأصل شكلًا، متناقضين طبعًا وإيمانًا كل التناقض.. صوت طبول تُدق بإيقاع رتيب.. أحد الأطفال يتقدم ناحية سين ويشق صدره بسكين حاد من نور من دون أن يتحرك سين أو يتألم.. وفي الجانب المقابل يتحرك أحد العواجيز ويشق صدر صاد بسكين حاد من نار من دون أن يتحرك أو يتألم صاد.. يمدان أيديهما ويمسكان قلبيهما.. يخرجانهما.. يبرق الاثنان أعينهما.. صندوقان من زجاج شفاف يجرجرهما الطرفان.. أحدهما ممتلىء بالنور

والآخر ممتلىء بالنار.. يسقطان فيهما القلبين.. يغرقان.. صوت يهمس:

- شتان بين شمس من نور وشمس من نار.

ارتعدتُ أمام البلورة السحرية.. ضباب كثيف ينتشر.. تختفي البلورة.. صوت موسيقى عبد الحليم حافظ يتسلل إلي:

- حبيبها.. لست وحدك حبيبها.

نهضتُ.. نظرتُ حولي.. زال الضباب رويدًا رويدًا.. وسن في جواري.. ما زلنا في مكاننا وسط النيل فوق المركب.. الشمس تتوسط السماء.. أنظر إليها بعيون مفتوحة.. انظر إلى معصمي متلهفًا.. ما زال السوار الفضي حول يدي.. تسألني وسن:

- أين اختفيت؟ بحثت عنك كثيرًا في أحلامٍ متتابعة ولم أعثر لك على أثر.

حاولت استجماع تركيزي.. تتابعت الأفكار على رأسي.. تذكرتُ كل تلك الأحلام.. حلم السيد غالب وطفليه سين وصاد.. السيد صاد قائد الهون والخزر والسيد سين أحد المقاتلين في الجيش الإسلامي.. قصصتُ لها كل ما عايشته.. ساد الصمت بيننا.. الحيرة تصارعنا.. همست لي وكأنها عثرت

على حل جاهز لذلك اللغز:

- أنت تعرف أن الرجل ذا الأعمال الخيرية شريك هيبنوس ووالدك يعبث في الحلم الورديّ.

- لا أعرف لذلك تفسيرًا واضحًا.. وأنتِ كذلك ظهرتِ في هذه الأحلام.. مرة كمحبوبة للسيد صاد هورونيا ومرة زوجة للسيد سين غزل.. كيف لا تتذكرين ذلك؟

- أنا؟

- لم أعد أفهم أي شيء.. لماذا نحن هنا؟ للعثور على هيبنوس.. هيبنوس! ذلك الملعون.. من صنع حلمًا ورديًا ممتلئًا بالكوابيس.. حلمًا مشاهده تاريخية عن قصة أوخوس وذريته.. ما دخلنا نحن في كل هذا.. هل هو صانعه حقًا أم مطاردوه؟ كيف سنعثر على ذلك اللعين؟

فكرة تراودني أنه أحد التوأمين.. سين أو صاد.

- ربما هو كلاهما معًا.

- ماذا تقصدين؟

حينها تغير المكان من حولنا.. تلاعبت الأضواء المبهرة في حفل استثنائي داخل قاعة شاسعة الاتساع حوائطها بيضاء وسقفها يكاد لا يُرى لارتفاعه.. غُلقت الأبواب وحُجبت كل

وسيلة لإدخال ضوء الشمس.. صوت يهمس في أذني:

- استيقظ يا بني! افتح عينيك!

صوت آخر:

- ما ينتظرك في الظلام بشعٌ للغاية.

لوح ورسومات معلقة في كل مكان.. إنها لوحاتي.. ها هي لوحة مدن الغربان على مقربة مني.. ولوحة الخديعة في جانب آخر وغيرهما كثير.

مصابيح كهربائية حديثة تبث في النفس البهجة.. أرض رخامية باردة وأناس في زيّ رسمي.. يرتدون البدل الأنيقة وفساتين السهرة المكشوفة الظهر وبعض النهود البارزة.. موسيقى غربية تجبرهم على الرقص.. قاعة تحتوى على أكثر من مائة ألف إنسان على أقل تقدير ومع ذلك لا تشعر بالزحام.. وقفت في منتصفها كالمجذوب في زيّ أبيض.. نقطة بيضاء تشبه الحوائط وسط كوم من الألوان المختلطة الغالب عليها السواد.

- أين نحن ؟

سألتني وسن.. لم أجبها.. مددتُ يدي لأمسك يدها ونمر بين الناس.

مررنا بين الراقصين ساحبًا يدها ورائي.. زاد إيقاع خطواتي رويدًا رويدًا حتى صرنا نجري..

ضحكت كثيرًا من دون سبب.. توقفتُ على ضفاف نظراتها الموحية بغرق عقلي في بحر الجنون..

- علام تضحك؟

كادت أن تصرخ من صخب الموسيقى.. الناس لا يتوقفون عن الرقص.. تراقصتُ معهم أتمايل برأسي يمينًا ويسارًا.. رؤوسهم عجيبة.. دققت وسن النظر.. ما هذا؟ إن للناس رؤوس حيوانات مفترسة.. خلعوا ثيابهم حتى صاروا عرايا كليةً.. قبلوا بعضهم والتهموا ألسنتهم شهوةً وشبقًا.. تضاجعوا.. ما زلتُ أتمايل برأسي كالمجاذيب.

أصوات صيحات تتداخل.. ترى وسن جنود أمن مركزي يدبون أقدامهم في الأرض وينتشرون في المكان.. تعالت صيحاتهم.. امتزجت بآهات الناس ذوي الرؤوس الحيوانية المفترسة.. لحظة فاصلة.. صرخت.. صرخ الطفل في داخلي.. انفجر المكان بمن فيه.. تناثرت أشلاؤهم على وجوهنا لم يتبق غيري ووسن.. أغمضتُ عينيّ.. دقائق من الصمت الموحش.. فتحت عينيّ بحذر شديد مترقبًا.. نظرتُ حولي.. آلاف من الجثث على مدى البصر ورائحة الدماء المختلطة تثير الغثيان.. وقفتُ ووسن أمام بعضنا والصمت يحلق فوق

رؤوسنا.. كنا مشدوهين وسط الأشلاء والجثث في تلك القاعة بيضاء الجدران.. أرجلنا تخضبها الدماء الممتزجة.. دقات طبول تتصاعد لا نرى مصدرها.. طلاسم باللغة السومرية القديمة تُكتب على الجدران.. امتلأت الحوائط بتلك الطلاسم المكتوبة بالدم.. لحظات وتحولت تلك الحوائط إلى جدران شفافة تبرز ما وراءها.. برقت عيوننا.. تلك الغرفة محاطة ببحر هائج من الدم.. وكأننا نطفو فوقه.. تتلاطمه الأمواج بعنف.. ننقلب على الأرض ونتخبط.. حتى الأرض والسقف قد تحولا.. تبعثرت الجثث وتكومت فوقنا.

الشمس تتوسط السماء فوق بحور الدم.. أمواج كالجبال تتقاذفنا يمينًا ويسارًا.. إحداها تغطي الغرفة تمامًا.. بدأنا نغوص نحو الأعماق.. والدم يرتفع في تلك القاعة.. جاهدتُ ووقفتُ.. حاولتُ مساعدة وسن ولكن ما رأيته شل تفكيري وحركتي.. ملايين الجثث خارج الغرفة.. وكأنه بحر اجتاح مقابر البشر أجمعين منذ بدأ الخليقة.. كلما هبطنا نحو العمق زادت الأعداد وزاد ارتفاع الدم في الخارج.. ما يثير قلقي أكثر أنها تتحرك.. نعم.. جثث تتحرك وتصرخ بعلو صوتها.. كنا نسمعها بوضوح.. صرخات عالية مرعبة ممتزجة بعذاب منقطع النظير.. ينظرون ناحيتنا وكأننا ملاذهم الأخير.. طوق نجاتهم المنتظر.. بدأت الحوائط تتشقق حولنا.. الشقوق تتزايد.. الدم يكاد يغطينا.. أنفاسنا تجاهد لنطفو.

انفجرت الحوائط واجتاحتنا سيول الدماء.. غرقنا من دون مغيث.. ارتطم جسدي بآلاف من الجثث والجميع يمسك بي.. يحاول احتضاني ولكن قوة التيار تنقذني من بين أياديهم..

ارتطمت بالقاع.. ضوء علوي أرى بصيصه بالقرب مني.. تلفتُّ سريعًا.. رأيت سُلَّمًا ذهبي.. سُلَّم يبتعد عنه الموتى.. سبحتُ إلى هناك.. لا أدرى لماذا؟ ولكنني هرعتُ مقاومًا التيار.. تمسكتُ بجوانبه.. وضعتُ قدمي فوق درجاته.. وسبحتُ للأعلى.. آمل أن يكون فيه الملاذ.. صعدتُ وصعدتُ حتى طفوتُ على السطح.. ما زال البحر هائجًا بقسوة.. السلم لم ينته بعد.. تمالكتُ نفسي والدماء تتساقط مني.. صعدتُ.. فقدتُ وسن.. خطوتُ فوق الدرجات إلى المزيد.. سلم لا نهاية له.. توقفتُ بعدما تخطيت سقف الأمواج.. نظرتُ للأعلى لأرى نهاية ذلك السلم.. ياالله! السلم يصل إلى السماء.. ينتهي عند الشمس.. صوت يناديني:

- تعال إلى النور!

ارتعدتُ.. هل أعود إلى الخراب والدماء في الأرض الغارقة؟ أم أصعد وأقذف نفسي إلى المجهول؟

- تعال إلى النور!

اتخذتُ قراري بالمضي مشدوهًا.. صعدت.. لم أدرك

كم مضيتُ صاعدًا نحو الشمس حتى وصلت.. الوهج لا يحرقني.. برقت عيناي.. خطوة أخرى وأقذف نفسي إلى داخلها.. السلم لم ينته بعد.. خطوتُ بقدميَّ داخل الشمس..

بريق لا مثيل له يحاوطني.. أرض شاسعة تمتد على مدى البصر تتلألأ.. أفيال بأعداد ضخمة يركب فوقها أناس مبتسمون.. أرض من الذهب.. وبيوت زجاجية تخفي ما في داخلها.. بيوت عملاقة أكبر من القصور.

-٢٦-

مـــــدن الأحــــلام

(حلم السيد سين)

كنتُ مدركًا لأول مرة أنني هنا أُجسد شخصية السيد سين.. في داخلي ذاكرته بالكامل بالتوازي مع ذاكرة مقدم الشرطة عيسى مختار الجيار.. كلانا نفس الشخص؛ أحدهما في الحقيقة والثاني في الأحلام.. أحدنا يُدرك الآخر والثاني يجهله.. رجل يقفز من فوق فيل في رشاقة عجيبة.. يقترب مني.. رأيتُ عينيه.. وكأنهما قرصان من الشمس.. يرتدي ملابس من الذهب والياقوت.. وفي جانبه يعلق سيفًا من ضوء.. ربت بيده فوق كتفي فانتشرت السكينة داخلي بغتة:

- السيد سين بن غالب.

- أين أنا؟

- تعال يا سين.. لقد آن لك أن تعرف.

- إلى أين؟

- تعال إلى النور!

حملني وكأنني ريشة تطير في الهواء وركبتُ خلفه فوق

الفيل ذي السراج الذهبي.. انطلق الفيل وكأنه يطير في سرعة عجيبة.. أناس كثيرون مثله حولنا فوق أفيالهم.. نظرتُ فوقي.. سماء زرقاء صافية تتوسطها شمس أخرى.. كيف ذلك؟ سألته:

- أهناك شمسان؟

لم يجب واكتفى بابتسامة خفيفة.. طيور أجنحتها من الذهب تحلق فوقنا.. رائحة كالمسك تنتشر في الهواء.. سكون لا مثيل له تخشع له النفس لا محالة.. توقف أمام قصر زجاجي عظيم فوق أحد الجبال العالية.. ترجلنا.. نظرتُ خلفي.. تبدو تلك المدينة الخرافية كلها من هذه النقطة.. فُتح لنا باب ودخلت في صحبته.. تقابلنا تلك الطيور الذهبية الأجنحة عن قرب فوق عمدان من الياقوت.. ممر طويل حوائطه من الذهب.. سكون ما بعده سكون.. لا صوت غير رفرفة الطيور.. ولجنا إلى قاعة رباعية الجدران.. ازدادت رائحة المسك وكأن تلك القاعة هي مصدرها.. ستار من ذهب يتراءى أمامنا.. ابتسم لي الرجل وانصرف.. اختفى تاركًا لي بمفردي متجاهلًا نداءاتي.. صوت أجش يناديني:

- مرحبًا بالسيد سين.

ارتفع الستار الذهبيّ ليظهر رجل عظيم.. رداؤه من الياقوت والمرجان وفوق رأسه تاج ضخم يزينه ريش ذهبيّ كتلك

الطيور.. وفي المنتصف لؤلؤة تبرق.. عيناه كالشمس هو الآخر. ابتسامته تسلب الزيف من القلوب.. جالسًا على عرش من ضوء.. ترجل ناحيتي فوق سلالم من الضوء.. وقف أمامي.. احتضنني.

- مرحبًا بك.

- أين أنا؟

- أنت هنا في مدن الأحلام.

- مدن الأحلام!

- لقد آن أوان المعرفة.

ابتعلتُ ريقي وتمالكتُ نفسي:

- سيدي.. هل أنا مت؟

- كلا.. ما زلت على قيد الحياة يا سين وفي خلودٍ شمسيّ حقيقي.

هذا الحلم من المؤكد أنه كان جزءًا من الحلم الورديّ لهيبنوس.. جمعتُ شتات تركيزي وأيقنت أنني على مقربة من اكتشاف هام.. سألته:

- هل لي أن افهم أي شيء؟

- أنت هنا لكي تفهم..

ترجل عائدًا إلى عرشه الضوئي.. جلس عليه وابتسم:

- لنتعرف أولًا.. أنا الحاكم بأمر مدن الأحلام.. ليس لي اسم فقد خُلقت لتلك المهمة منذ أن وجدت تلك المدن وإلى أن تقوم الساعة.

- مدن الـ...

قاطعني:

- استمع ولا تقاطعني وستجد إجابة لكل ما يدور في بالك.

- حسنًا.

- منذ أن خلق الله -سبحانه وتعالى- الإنسان وأسكنه في موضعه المُقدَّر له في الكون حتى هيَّأ له نظامًا لا يحيد.. ونحن هنا في مدن الأحلام جزءٌ من هذا النظام.. ينشط الإنسان نهارًا وينام ليلًا.. وعندما ينام تصعد نفسه تلقائيًا من الجسد وتتيه في تلك المدن.. وكل ونفسه ومخزن ذاكرته.. لقد صممت المدن لتكفي نفوس كل البشر في كل الأزمان.. عدد لا نهائي منا يشرف على تنفيذ ذلك النظام.

بادرته بسؤال ولكنه أشار لي بالصمت:

- سأجيبك.. قلت لك لا تقاطعني.. تريد أن تعرف من نحن؟

قلت لك نحن القائمين بتنفيذ ذلك النظام.. عجبًا للإنسان.. عجول جاهل.. ليس كل الخلق بشر وملائكة وشياطين.. لقد أوتيتم من العلم قليلًا.. في هذه البيوت الزجاجية تدخل كل نفس.. كل بيت هنا مخصص للنفس حتى تموت.. فيتغير ساكنها وهكذا منذ أن خلق الله تلك البيوت.. بيوت الذكريات.. والآن يمكننا التحاور.

ما يقوله ذلك الرجل لا يقوى عقلي على تصديقه.. تلعثمتُ.. سألته كعيسى الجيار وليس كالسيد سين:

- كيف تغادر النفس الجسد ويبقى الإنسان على قيد الحياة حتى يستيقظ؟

- لأن الروح الممنوحة من الله تبقى في الجسد ولا تغادره إلا لحظة الموت.

- أتعني أن مغادرة النفس للجسد تحدث بشكل تلقائي مع النوم اليومي للبشر؟

- نعم.

- وعند الموت؟

- لا.. مسئوليتنا تنحصر في عالم الأحياء.. النفوس الحيّة أصحابها.. الله خلق نظامًا آخر للأموات لا علم لنا به.

- هناك شخص يُدعى هيبنوس.. هل تعرفه؟

- لن يجيبك أحد.. عليك أن تعرف بنفسك.

- كيف؟

- ما زال للقصة بقية.

- تفضل.

- هذه المدن تحت حراسة مشددة من جنودنا.. وكما قلت لك نحن بطبعنا نعيش في خلود حتى تقوم الساعة.. ربما هذا الخلود له علاقة بالمكان.. بمدن الأحلام ذاتها.. ربما إن عشنا بعيدًا عن هنا لانتهت تلك الخاصية.. لن أطيل عليك.

ترجل حينها من جديد ووقف مواجهًا لي مترددًا فيما يقول:

- لقد تعرضت مدن الأحلام لهجوم كاسح من الشيطان وجيوشه.

- الشيطان!

- نعم.. نحن في حروب لا تتوقف مع هذا المخلوق اللعين.. من منحه الله نفس الخاصية ليختبرنا ويختبركم أنتم البشر.. تلك الحروب سواء كانت خفية أو معلنة هي المعنى الحقيقي للحياة.

- وبعد؟

- لقد احتلت جيوشه بعض مدن الأحلام وأحكم سيطرته عليها.. وأنشأ فيها سجونًا يُمارس فيها تعذيب النفوس.. سجون مدن الأحلام.. ومن هنا جاءت الكوابيس.. ينام الإنسان وهو لا يعلم أن هناك من يتربص به ليختطف نفسه إلى سجون مدن الأحلام.

- كلام لا يصدقه العقل أبدًا.

- قلت لك لم تؤتوا من العلم إلا قليلًا.

- ما أفهمه منك أن مدن الأحلام قد انقسمت إلى جزءين.. جزء تحت حكمكم وجزء يحكمه الشيطان وهو مصدر كوابيس البشر.

- نعم.

- ولكن!

- تريد تفسير ما جرى لك ولعائلتك؟

- عائلتي!

- عائلة السيد أوخوس.

تذكرتُ أنه يعاملني داخل حلم السيد سين.. تراجعتُ للوراء

متصنعًا:

- نعم.. بكل تأكيد.

- الشيطان يحقد على البشر ويريد تدميرهم على طول الطريق.. والله يريد الهداية ويرسل الأنبياء والرسل بكتبه وتعاليمه ليرشدهم.

- نعم.

- لُيكمل الشيطان غوايته.. كتب كتابًا تملؤه الطلاسم والتعاويذ السحرية.

- كتاب هيبنوس!

لاحقته فأشار بالإيجاب.

- وصل ذلك الكتاب المسحور إلى والدك غالب ونالكم ما نالكم من سحره من خلود شمسيّ كاذب.

- الشيطان.. ذلك اللعين.. صاحب النبوءة الخاصة بموت أبيك صلبًا وصديقه حرقًا.. كل ذلك من أفعال الشيطان بيد زبانيته من البشر.. من يسيطر على أفعالهم ويأمرهم بمجرد كلمة في آذانهم.. هم حتى لا يدرون أنهم ينفذون أوامره.

- ولماذا يقتله صلبًا وسيجانوس حرقًا ويفرق بيني وبين أخي صاد؟ لماذا كل هذا؟

- كلما زادت الفرقة والصراعات بين البشر انتعش الشيطان وظن أنه قد انتصر.

- ولكنه توقع كل ذلك.. الشيخ العجوز الذي ظهر لأوخوس في أسره أخبره..

قاطعني:

- ستموت مصلوبًا يا بني وسيأتي من يرعى ابنك بعدك ولكنه سيموت حرقًا وسيهرب ابنك حتى يولد له اثنان؛ أحدهما يختطفه الشيطان وبعد زمان وزمان سيقتتلان.. أي الفردين سينتصر؟ من يغزو مدن الأحلام.. وعلامة ذلك الخلود في شمس بلا غياب

- نعم هي كذلك.. كيف للشيطان أن يعرف كل ذلك عن الغيب؟

- اسمعني جيدًا يا سين.. ما فعله الشيطان في عائلتك فعله مع أغلب البشر في كل زمان.. تلك ألاعيبه المزمنة. أما تلك النبوءة فهي من فعل الشيطان ذاته ونجح في تنفيذها.. وبالمناسبة هذا الشيخ العجوز كان الشيطان ذاته متجسدًا في بشريّ.

- كيف له أن يعرف بالمستقبل؟

- كذب المنجمون ولو صدقوا.

- بهذه الدقة.

- هل قتلك صاد؟ أو أنت قتلته؟

- لا.

- إذًا لم تتحقق كل النبوءة.

- ربما تتحقق في المستقبل.

- وربما لا.

ابتسمتُ ساخرًا من نفسي.. أي منطق هنا أبحث عنه في حلم كهذا؟ أيمكن للإنسان أن يعثر على إجابات منطقية داخل الأحلام؟.. محال.. سألته:

- أتعرف خطة الشيطان؟

- بالطبع كانت خطته أن يغرق الكتاب في عرض البحر ويفترق الابنان ويتصارعا إلى الأبد..

ومنحهما الخلود الشمسيّ الذي يسطير على جزء منه لاحتلاله بعض مدن الأحلام.

- ما الغرض من كل ذلك؟

- ما يفعله معكما يفعله مع غيركما.

- والكتاب المسحور!

- عثر عليه بعض البحارة وتناقلته السحرة والأفَّاكون عبر الأزمان وجميعهم في خلود شمسيّ كاذب.. جميعهم أعوان لأخيك السيد صاد.

- كل من وصله ذلك الكتاب أصيب بخلود شمسيّ!

- كاذب!

- لكن هناك من عاش مدة تتجاوز أي عمر لبشر يماثلونه في نفس حقبته الزمنية كالسيد غالب مثلًا.

- أبوك.. قلت لك إنه استولى على خاصية الخلود في مدن الأحلام.. والحروب بيننا وبينه سجال.. ففي عدة مرات نجحنا في طرده نهائيًا من المدن وأحكمنا السيطرة عليها وأزلنا كل أثر لأفعاله.. ربما كان ذلك سببًا في موت بعض من منحهم الخلود.. كسيجانوس وأتيلا.. لكن عاد الشيطان بقوة غاشمة وتنازعنا من جديد المدن وعادت بعضها تحت سيطرته.

- ولماذا لم أمت أنا وأخي صاد عندما فقد الشيطان السيطرة؟

تعجبتُ من ذلك السؤال الذي نبع تلقائيًا من شخصية السيد

سين من دون أي سيطرة مني.. كأنه احتل لساني.. أجاب الرجل:

- لأننا منحناكما خلودًا حقيقيًا.

- ماذا؟

- هذا قدركم من قبل أن تُخلقوا.

قدرٌ يُكمل الاختبار حتى نهايته.. ليس أنتم فقط فهناك العديد من البشر يخوضون نفس التجربة أو خاضوها في الماضي وانتهت في موعد حدده الله سبحانه وتعالى.

وجهان للخير والشر في الأرض.. يتصارعان حتى النهاية.. منهم من يدنو من الشيطان ومنهم من يحاربه ولكن على أي حال وجودكما معلقٌ بعمر الدنيا مهما تعددت وجوهكم.

أنتم تعيشون كحياة الآخرة.. لا نوم فيها ولا قمر.

- الجنة! شمس لا تغيب!

قلتها والدموع تملأ عينيّ فجأة.

- نعم.. خُلق الليل في الدنيا لينام الناس وتكتمل المنظومة.. أما الجنة والجحيم فلا نوم فيهما ولا غياب للشمس.

- يا الله!

- والآن وقد عرفت كل شيء.. نحن نحتاج مساعدتك.

- مساعدتي أنا؟

- نعم.. نريدك أن تنتصر في هذه الحرب الدائرة بينك وبين أخيك صاد.. نريد أن ينتصر الخير على الشر.

- لماذا؟

- لأن وجودنا ينعدم بهزيمتك.

- هل لك أن توضح لي؟

- حتى اللحظة نستطيع بسط سيطرتنا على المدن الواقعة تحت حكمنا.. ولكن في المستقبل سيزداد جيش إبليس لا محالة.. معلومة أغفلتها لا بد لك أن تعرفها.

- أي معلومة؟

- جيوش إبليس لا تتكون من الشياطين فقط.. جيوش إبليس تجنَّد فيها نفوس الكافرين والمضللين من البشر أثناء الليل.. أثناء نومهم.. ومن يخاف من الانضمام يُرسله إلى سجون المدن ليتعذب.. يهاجمون المدن بشراسة .. وكلما ازداد عددهم كلما بتنا في خطر مدقع.

- الآن فهمت.. كلما زاد عدد المؤمنين بالله في الأرض، ضعفت جيوش إبليس ونجوتم أنتم بالمدن.

- هل ستساعدنا؟

- عليّ بهزيمة صاد.. ذاك ما تقصد.

- وتكون رسول مدن الأحلام.

- ماذا؟

- لتكن أنت رسول مدن الأحلام.. امشِ بين الناس وانشر تلك الأفكار.. الإيمان هو الطريق إلى النجاة.. لن تكون بمفردك.. سنرسل رسلًا غيرك.. ولكن اعمل كأنك الوحيد.

- وصاد؟

- لا تحاول أن تستميله.. فقد سيطر عليه الشيطان كلية.. وربما في نفس اللحظة التي أتحدث إليك فيها يكون هو جالسًا تحت عرش الشيطان يتناولان الجعة معًا ويطمس في قلبه كل ذرة شك من رؤيتك في ساحة المعركة.

اختلج قلبي بين ضلوعي.. لا أرغب في مقابلة الشيطان في هذا الكابوس أبدًا.. يساورني قلق شديد أن يكون الكابوس التالي هو مقابلته حقًا.. اللعنة! تصارعت الأفكار في رأسي والخوف عشش داخل عقلي.. زاغ بصري.. أشعر الآن أن السيد سين هو ذاته هيبنوس.. صوت في داخلي يؤكد لي ذلك.. هيبنوس رسول مدن الأحلام.. يا ليتني أجده وأقتله

وينتهي الأمر.. لقد بات الحلم الورديّ شديد الخطورة.. نظر الرجل في عينيّ:

- هذا قدرك.. لا خيار لك إلا المضي قدمًا.

- والآن؟

- ستفيق.. لن تراني مجددًا.

صعد على سلمه الضوئيّ وجلس على عرشه.. انفتح الباب ودخل الرجل الذي صاحبني إلى هنا.. استوقفني مناديًا بعدما هممت بالرحيل:

- يا سيد سين.. إن لم تنجح في مهمتك ستكون علامة قرب النهاية مرضًا سيصيب أغلب البشر.. سيحبسون في أحلامهم.

تلقفتها في الوقت الضائع لهذا الكابوس.. التفتُّ إليه في حماس شديد:

- يحبسون!

- حين ترى تلك العلامة تعلم وتدرك أن الشيطان قد استولى على أغلب مدننا وأحالها سجونًا للبشر.. ولن يصحو الناس من نومهم حتى لا يعطي الفرصة لهم بالتوبة والفرار من جيشه ثانية أو من السجون.. نوم بلا توبة حتى الموت..

ذلك إنذار أخير قبل فنائنا وهزيمتنا.. لو لم تجد وسيلة حينها لتنتصر سنخرج من المدن نهائيًا وينام كافة البشر حتى يموتوا.. وتُكتب النهاية.

بيدك أنت أن تغير.. بيدك التغيير قبل علامة الفناء.. قبل نومك الأخير.

يا الله! الآن ارتبك كل شيء داخل رأسي.. هل يكون هيبنوس هو السيد صاد؟ وقد ساعد الشيطان بعد قرون متعددة من الخلود الشمسيّ باختراع تقنية النعاس الجبريّ.. أم أنه السيد سين رسول مدن الأحلام وتلك كانت وسيلته لإنقاذ الناس أن يُعرفهم القصة كلها عبر الحلم الورديّ بطريق غير مباشر ليدعوهم لوحدانية الله والإيمان به؟

سين أم صاد؟ هل ينتهي كل ذلك حقًا بقتل هيبنوس أي كان هو في ذلك الكابوس؟ فيُنقذ الناس.. ما سمعته للتو جعل الأمر محال.. القصة أكبر من ذلك بكثير.. لتنتهي هذه الأزمة لا بد من قتل الشيطان نفسه.. أنا الآن في مفترق طرق.. المقدم عيسى الجيار بين اختيارين.. أن يخرج من هنا ويظل حبيس ذلك الحلم إلى أن يموت ويفنى البشر.. أو يقدم نفسه فداء للبشرية.. سين وصاد.. أي كان من هو هيبنوس؟ لن يخرج عنهما.. داخل ذلك الكابوس أنا سين وصاد.. وداخل الكابوس الشيطان يقابل صاد كما قال لي

حاكم مدن الأحلام.. توقفت شاردًا في مكاني.. لن أنتظر كابوس صاد هذه المرة.. لاحظ الحاكم بأمر المدن اضطرابي وربما قرأ أفكاري.. سألني:

- ألا تريد العودة؟

سألته بعد أن خطرت لي فكرة انتحارية:

- هل صاد في القسم الآخر من مدن الأحلام الواقعة تحت سيطرة الشيطان؟

- ربما.

- أريد مقابلة الشيطان.

- ماذا!

ما تفكر فيه لن يتحقق.. إنه قدر لا يتغير..

- أريد مقابلة الشيطان.. ذلك طلبي الوحيد.

هبط الرجل النوراني سلمه الضوئيّ.. وقف أمامي يفكر حتى اتخذ قراره.

- ستقابله إن وافق.

قطـار مــدن الأحـلام

رسالة عاجلة بين العدوين اللدودين؛ الحاكم بأمر المدن والشيطان.. راهن فيه الحاكم على غرور إبليس وثقته العمياء وكبره.. طلب السيد سين لقاء الشيطان.. فأرسل جوابه بموافقته أن يلقاه في قطار مدن الأحلام المشترك بين المملكتين.. قطار قديم لم يعد يعمل منذ الهجوم الأول للشيطان في قديم الأزل ليكون بديله الأفيال.

طمأنني الحاكم وضمن سلامتي مربتًا على كتفي:

- لا تخف.. ليس للشيطان عليك من سلطان.. لن يقوى على احتجازك في سجون مدن الأحلام

.. الإيمان يحميك يا سيد سين.

ركبتُ القطار المصنوع من الذهب الخالص.. تحرك من دون سائق مخترقًا أنحاء المدن.. بعد فترة كبيرة جلستُ فيها شاردًا فيما وراء جدران القطار الزجاجية الشفافة.

مقاعد من الياقوت متماثلة.. توقف القطار بغتة.. نظرت إلى الخارج.. سور ضخم لا تُرى نهايته ينفتح ليمر خلاله القطار ثم ينغلق.. تغير كل شيء بعدها.. من رائحة المسك

إلى روائح كريهة.. نفس المباني الزجاجية ولكن مختلف ألوانها فأغلبها طُلي باللون الأحمر القاني والأقلية طُليت باللون الأسود.. فوق الأفيال رجال غُلاظ عيونهم من النار ووجوههم قاتمة.. أناس على مدى البصر يبكون.. استمع إلى صوت نحيبهم المختلط صوتًا يخلع قلبي.. كلاب شرسة ضخمة تنهش الناس حول القطار.. منهم من يجري ليُلقي نفسه عليه طلبًا للنجاة.. يضربونهم بالسياط الموجعة.. رأيت أحدهم يجرجر أمعائه في مشهد مثير للغثيان.. أغمضت عينيّ.. لم أتحمل رؤية ذلك العذاب. ربما ولجت إلى الجحيم.. كلا.. الجحيم أكثر عقابًا.. همست:

- فليرحمِنا الله.

- ما ينتظرك في الظلام بشعٌ للغاية.

فتحت عينيّ لأجدني غارقًا في ظلام شديد.. همست لصاحبة ذلك الصوت النسائي:

- من أنتِ؟

- أنا وسن.

- وسن! لماذا أنتِ هنا؟

- ألم تطلب مقابلة الشيطان؟

- ماذا تعنين؟

ضحكت ضحكة شيطانية.. أشعلت مصباحها الزيتيّ الخافت لأرى وجهها.. لأول مرة ألاحظ أن عينيها كشعلتين من نار.. همست لي:

- أنا شيطان هذه القصة يا هيبنوس.

- هيبنوس!

- فلنكف الآن عن لعبتنا وندخل إلى محطة النهاية.

- أنا لا افهم شيئًا.. أنا هيبنوس؟

- هل تريد أن تعرف الحقيقة؟

- الحقيقة!

- لم يشارك هيبنوس رجلًا ذا أعمال خيرية.. بل كانت سيدة.. السيدة وسن.

ضحكت من جديد.

- عزيزي الدكتور مصطفى الأسيوطي.. أحد الذين عثروا على كتاب هيبنوس المسحور المسافر عبر الأزمان.. ذلك الرجل المجذوب من كان سببًا في إضافة مادة النوم في الدستور.. من قابلك.. أهداك ذلك الكتاب سرًا..من وقتها

عشت في خلود شمسيّ من دون موت.. لا يمكنك الانتحار أبدًا.. حاولت أن تساعد الناس على الإيمان بطريقة مختلفة.. أن تصنع حلمًا ورديًّا يحوي كفاح البشر ومرورهم من الظلام إلى النور.. أن تُريهم قصة سين وقصة صاد.. الخير والشر.. وعليهم الاختيار.. عندما يستيقظون من المؤكد أنهم سيختارون الخير.. مشروع نبيل.. رسول مدن الأحلام حقًا.. تلك المدن التي زرتها بنفسك أثناء اختراقك للحلم الورديّ وضبط مشاهده.. وصديقك الوحيد اللواء مختار الجيار.. رجل قابلته في السنوات الأخيرة وأعجبه فكرتك.. تشارك معك في الحلم المستحيل.. لكنك لم تُفصح له عن سر الكتاب.. حينها ظهرت أنا.. وسن.. سيدة أعمال خيرية رشحها اللواء مختار الجيار لتعميم الحلم الورديّ.. مشروع ضخم يحتاج لأموال طائلة.. كان علينا طرح عقار النوم للناس في مياه الشرب ليدخلوا في الحلم الورديّ حتى نهايته من خلال إشعاعات مدروسة وبعدها سيتم بث غاز اليقظة في الهواء ليصحوا الناس وقد عاشوا التجربة كاملة.. وفي كل ليلة نعاود الكرَّة.. للعلم عقار اليقظة معنا منذ البداية سواء في صيغة دوائية أو غازية.. أنت للحق مخترع باهر.. الحلم الورديّ.. كنت تراهن أن الناس سيختارون السيد سين قدوة لهم.. وكنتُ أنا على رأس مؤسسة خيرية لها فروع في العالم أجمع.. تنازعنا.. مؤسستنا تريد طرح التجربة للناس بالمال..

وأنت تُريدها مجانًا.. غير أننا طلبنا منك حذف أحلام السيد سين كاملة من الحلم الورديّ وإضافة أحلام جنسية بكل أنواعها.. رفضت.. هددتك بعائلة صديقك الجيار.. اضطرب الجيار خاصة أنه في الفترة الأخيرة دخل تجربة الحلم الورديّ وتفاجأ بزوجته تخونه داخل الأحلام.. أقسمت أنت له أن ذلك غير حقيقي ولكن ساءت أحواله وتزايدت مشاجراته مع زوجته بسبب أو من دون سبب.. زاد الأمر بلاءً موت زوجة ابنه مقتولة في عملية شرطيّة قام بها ابنه عيسى.. ومع تهديداتنا بقتلهم.. انتحر الجيار.. ودخلت أنت في حالة نفسية سيئة وأوقفت بناء المشروع.. وهربت.. بدأنا تنفيذ المشروع عمليًا لنجبرك على الظهور من دون غاز اليقظة.. فبدأت جائحة النعاس الجبريّ تتزايد.. لربما تظهر من مخبئك ولكن ذلك لم يحدث.. كل ما أردناه منك طريقة تغيير الحلم.. الحذف والإضافة.. طريقة زرع الأفكار بشكل غير مباشر.. تقنية البلورة السحريّة التي تعرض عليها أحلام الناس داخل أحلامهم.. وسيلة عبقرية لزراعة الأفكار.. أخفيت عنا تلك التقنية.. بحثنا عنك.. طال غيابك.. فدخلت إلى الحلم الورديّ لأبحث عنك.. فكرة مجنونة ولكنني توقعتها منك.. وبالفعل عثرت عليك هاربًا داخل الحلم الورديّ في شخصية مغايرة.. المقدم عيسى الجيار.. لدرجة أنك مقتنع كل الاقتناع أنك هو.. سايرتك.. ودخلت معك مستويات الحلم الورديّ بكل

مافيه من كوابيس لعل ذاكرتك تعود إليك وتعود إلى رشدك.. لعلك تستيقظ.. كنت مدركة أن قتلك في الحلم له خطر شديد على المشروع.. ستستيقظ فاقدًا للعقل.. حتى أنني لا أعرف أين جسدك في الحياة الحقيقية؟ أين مخبؤك؟ وتأكد حدسي.. مع كل المصائب والكوابيس التي مررت بها لم تستيقظ.. لقد هربت إلى عالم الحلم الوردي من دون دواء اليقظة حتى لا تعود مجددًا.. لقد شعرت أن ما جنته يداك سيكون سببًا في نهاية العالم.. موت الناس.. آلمك انتحار صديقك.. فشلت في مساعيك لإفاقة الناس من ذنوبهم.. لم تلحظ أنهم غارقون في تلك الذنوب منذ عقود وعقود.. هم يسيرون نحو نهايتهم ولن ينجح أمثالك في إنقاذهم.. هم يستحقون ذلك يا هيبنوس.. أفِق.. عُد لنفسك.. أخبرني أين جسدك؟ لأخرجك من هذا المكان إليه وأحقنك بعقار اليقظة وتستيقظ لتُعدل في مشروعك وتصبح أغنى رجل في العالم.. لا تضيع نفسك من أجل أُناس يهرعون للجحيم راكضين.. لا أستطيع إجبارك هنا.. عد إلى رشدك يا هيبنوس.

ألم شديد يجتاح رأسي.. هل أنا حقًا هيبنوس؟ هيبنوس.. أم سين أم صاد أم عيسى الجيار أم ضاعت شخصيتي وسط كل تلك الكوابيس المتتالية.. صرختُ.. صرخ الطفل في داخلي:

- الظلام داخلي يزداد.

- استيقظ يا هيبنوس! افتح عينيك!

قالتها وسن.. شيطاني الرجيم.

- الظلام داخلي يزداد.

تحركت الدمى نحو الطفل تنهشه وعيون وسن تهاجمني بجيوش من الحقيقة.

- استيقظ يا هيبنوس! استيقظ من الحلم!

همستُ باكيًا:

- يا ليته كان حلمًا!

- الدنيا منذ البداية حُلمٌ لأبيك آدم، ودورنا أن نحيله لكابوس حتى يستيقظ هو وكل ذريته من بعده.

- الظلام يزداد داخلي.

- استيقظ لتعيش أبد الدهر في الجحيم معنا.

- رأسي يكاد تنفجر.

- استيقظ.

- لا أتذكر أي شيء.

- انزع عنك رداء النسيان وتذكر.

انطفأ المصباح الزيتيّ بغتة.. صرخت:

- من أنا؟

همست وسن:

- أنت إنسان.. في داخلك الخير والشر.. أيهما سينتصر.. من يملك حلمه.. من يملك الدنيا.

أغمضتُ عينيّ.. انتشر الضباب داخل عقلي.. لا أعرف من أنا.. لم يعد ذلك يهم.. هل يهم آخر البشر المعاصر لفناء الدنيا اسمه أو نسبه؟ الفناء ينسف كل الأحلام.. والذنوب أيضًا.. ذلك هو درسي الأخير.. ذنوب قادت أصحابها نحو الهلاك.. صمت مطبق.. دقات تتعالى.. أراني أقف في ضباب كثيف.. أقع في بحور من الدماء.. أغرق.. أستمع إلى صوت برنامج العلم والإيمان.. أدندن قارئة الفنجان.. ظلام دامس.. الدمى تلتهم جسد الطفل في داخلي.. الطفل يصرخ:

- لا تكبر.. ما ينتظرك في الظلام بشعٌ للغاية.

حروف تتلألأ في الظلام بضوء خافت.. سين وصاد.. صوت يهمس:

- حلمك هو الدنيا التي دخلها أبوك منذ بدأ الخليقة،

وشيطانك يحارب ليحول حُلمك إلى كابوس، والخلود هو طريق الحق إن وجدته لا تجِد عنه، ولن تخرج من حلمك إلا بالموت فأحسن الاختيار.

أصوات حيوانات تزأر.. فتحتُ عينيّ.. شمس تتوسط السماء.. أنظر لها بعينين مفتوحتين جالسًا فوق كرسي ضخم وسط الخراب كأن الارض قد احترقت كلها على مدى البصر.. لوحات مبعثرة حولي في كل مكان مرسومة بألوان زيتية.

حيوانات من كل نوع كأنها جيوش جرارة تركض نحوي.. أهمس قبل أن يفترسوني:

- «لا تنم؛ فربما لا تنجو من سجون مدن الأحلام.. ذلك هو الكابوس بعينه».

---تمت بحمـــــد الله---